من تراثنا البحرى

يوسف
الشارونى

أخبار الصين والهند

لسليمان التاجر
وأبى زيد حسن السيرافى
القرن الثالث الهجرى
التاسع الميلادى

الدار المصرية اللبنانية


أخبار الصين والهند

الناشر : الدار المصرية اللبنانية
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع: ١٤٨٧٠ /١٩٩٩
الترقيم الدولى: x- 563 - 270 - 977
تجهيزات فنية : آى ـ تك
العنوان: ٤ ش بنى كعب ـ متفرع من السودان
تليفون: ٣١٤٣٦٣٢
طبع : آفنون
العنوان: ٤ فيروز – متفرع من إسماعيل أباظة
تليفون: ٣٥٤٤٣٥٦ - ٣٥٤٤٥١٧

الطبعة الأولى : رمضان ١٤٢٠ هـ ـ يناير ٢٠٠٠م
تصميم الغلاف الفنان : محمد حجى

من تراثنا البحرى

يوسف الشارونى

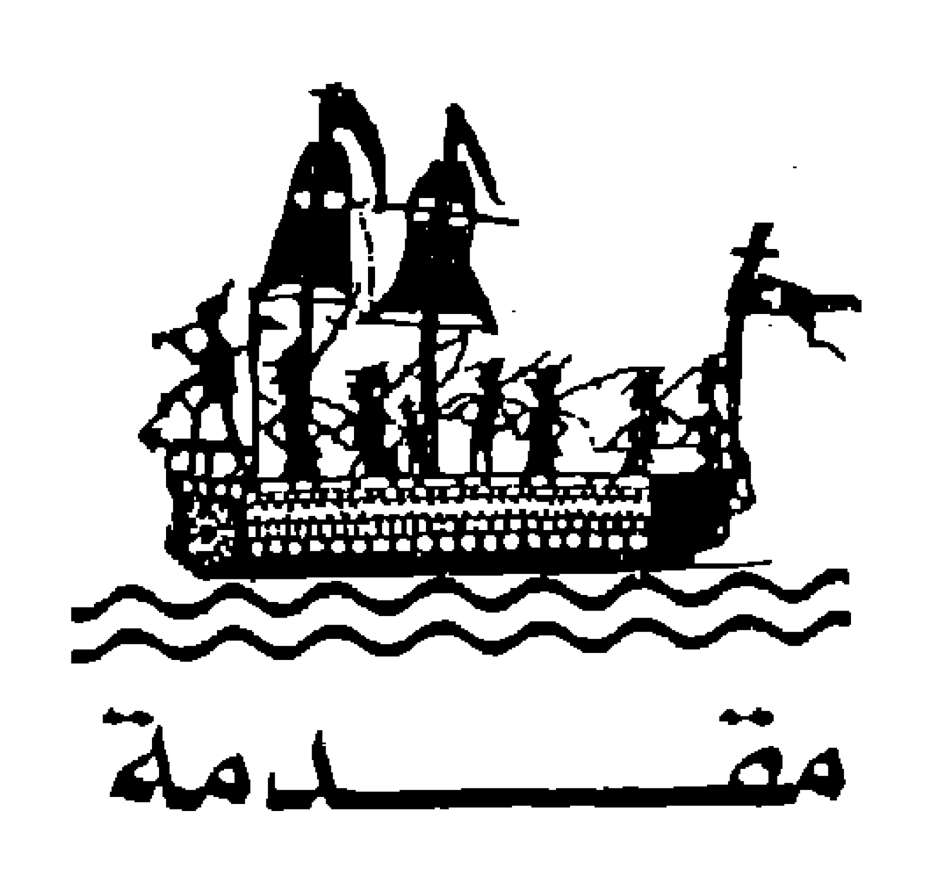
أخبار الصين والهند

لسليمان التاجر و أبى زيد حسن السيرافى

(فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى)




بسم الله الرحمن الرحيم



مقـــــــدمة

ترجع صلتى بهذا الكتاب منذ نبهنى إليه فى شبابى المبكر الدكتور حسين فوزى فى كتابه الممتع عن تراثنا البحرى «حديث السندباد القديم». ولقد حاولت بعدها أن أحصل على نسخة منه فى مكتبات القاهرة لكنى لم أوفق. ثم دُعيت إلى هولندا عام ١٩٨١/ ١٩٨٢م لإلقاء محاضرات عن «الحكاية فى تراثنا العربى» على طلبة قسم اللغة العربية بأقدم وأعرق جامعاتها «جامعة لايدن»، وهناك أُتيحت لى الفرصة لأتجول فى مكتبتها الضخمة التى ترجع - هى وجامعتها - إلى أكثر من ثلاثة قرون مضت، والتى تضم قسمًا عربيًا لا يتميز فقط بضخامته وتنوعه بل وما فيه من مخطوطات، بعضها ما يزال دون تحقيق، وبعضها حققه مستشرقون هولنديون وغير هولنديين وترجموه إلى لغاتهم وقدموا له وأضافوا شروحهم وتعليقاتهم وكشافاتهم. عندئذٍ خطر لى أن أبحث فى فهرس المكتبة عن كتب، مثل: «عجائب الهند»، و«أخبار الصين والهند». فإذا بى أعثر بالنسبة للكتاب الثانى - لا على ترجمة فرنسية واحدة له بل - على ثلاث ترجمات إلى الفرنسية، ترجمة منها معها النص العربى بجزأيه: الجزء الأول المنسوب إلى سليمان التاجر، والثانى الذى أضافه أبو زيد حسن السيرافى. ويبدأ هذا النص ببضعة سطور واضح أنه لا علاقة لها بالمخطوط، وأنها أقحمت عليه لتغطية السطور الأولى التى يبدو أنها فُقدت، وقد ترتب على ذلك إعطاء الكتاب عنوانًا خاطئًا، هو: «سلسلة التواريخ». هذه الترجمة هى ترجمة رينو Reinaud عام ١٨٤٥م. أما ترجمة جابرييل فيران Grabriel Ferrand عام ١٩٢٢م، فهى ترجمة أخرى لنفس المخطوط السابق بمقدمته المستبدلة دون الأصل العربى. أما ثالث الترجمات وأحدثها فهى ترجمة جان سوفاجيه عام ١٩٤٨م، لكنها ترجمة للجزء

الأول فقط من الكتاب المنسوب إلى التاجر سليمان بعد حذف السطور الأولى المقحمة خطأ على النص، ومعها النص العربى لهذا الجزء فى طباعة أكثر وضوحًا وعناية من طباعة الترجمة الأولى التى سبقتها بأكثر من قرن.

وسرعان ما أطلعت بشغف على النص الذى طالما قرأت فقرات منه وأشار إليه أكثر من باحث فى الملاحة العربية فى المحيط الهندى (أو البحر الشرقى الكبير كما كان يُسمى) كمرجع أساسى، لكننى لم أفكر فى أكثر من ذلك وقتئذٍ، إذ كنت مشغولاً ـ فيما يبدو ـ بخطط أخرى، إلى أن تهيأ لى الدافع الثالث ـ والذى حسم اهتمامى بهذا الكتاب الممتع الهام ـ وذلك حين سافرت فى مهمة عمل إلى سلطنة عمان التى تطل سواحلها ـ وتبلغ طولها ١٧٠٠ كيلو متر ـ على شاطئ المحيط الهندى، وخالطت شعبها الذى خرج منه صانعو القوارب وصيادو أسماكها الساحلية، وصانعو الأساطيل التى جابت هذا المحيط من شرقه فى الصين حتى غربه على ساحل إفريقيا الشرقية، وهى تزدحم بالملاحين والمهاجرين والعائدين والمغامرين والمحاربين والبضائع والتجار والملاحين.. مناخ يمور بالحيوية والنشاط وروح المغامرة والسعى وراء الرزق، فلا عجب أن برزت منه شخصيات ما بين تاريخية فى مقدمتهم أحمد بن ماجد الملاح الشهير ومؤسس علم البحار، وأخرى فنية لعل أشهرها السندباد البحرى «دائم السفر، رحيله قدر، يكره الحذر، يعشق الخطر»[١].

وهكذا تضافرت ثلاث مدن فى شحن وجدانى لعقد أواصر الصداقة مع هذا الكتاب الذى ـ فى حدود علمى ـ ليس له طبعة مستقلة فى عالمنا العربى: قاهرة «حديث السندباد القديم» للدكتور حسين فوزى، ومدينة الاستشراق الهولندية لايدن حيث عثرت فى مكتبة جامعتها على الترجمات الفرنسية الثلاث ونصين عربيين مطبوعين للمخطوط، ومسقط أحد موانئ المحيط الهندى الهامة التى يتكرر ذكرها فى الكتاب. فما أن أُتيحت لى فرصة السفر مرة أخرى إلى لايدن حتى كان شاغلى الأول تصوير هذه الترجمات الثلاث لأعكف على النص

(١) يوسف الشارونى، أعلام من عمان، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٩٠م، ص٤٥.

مستفيدًا من جهود من سبقونى، مضيفًا إليهم جهدى المتواضع، وما أضافته خمسون سنة بعد آخر ترجمة لهذا الكتاب من معلومات واجتهادات باحثين جدد لأقدِّم أول طبعة له فى عالمنا العربى.

ـ ٢ ـ

والمخطوط الأصلى لهذا الكتاب اشترته لحسابها من حلب مكتبة كولبير Col-bert عام ١٦٧٣، ثم انتقل إلى مكتبة الكونت دى سينيلاى Seignelay، وبعد ذلك إلى المكتبة الملكية التى أصبحت المكتبة الوطنية فى باريس. وكان المخطوط يتكون من أربعة أجزاء، الجزءان الأولان منها المنسوخان بنفس الخط يذكر ناسخهما فى نهايتهما أنه أتم نسخهما فى صفر عام ٥٩٦ هـ، المقابل ١١٩٩م. وقد قام بدراسة هذا الكتاب وترجمه الأب رينودو إلى الفرنسية القديمة بعنوان: «أخبار قديمة من الهند والصين لاثنين من الرحالة المسلمين قاما برحلتيهما فى القرن التاسع الميلادى»، وكان ذلك عام ١٧١٨م.

وفى الوقت نفسه كان المستشرق لانجليه Langlés قد طبع النص العربى للمخطوط عام ١٨١١م، فجاء المستشرق رينو وأعاد طبع النص مع ترجمة فرنسية ومقدمة ونشره عام ١٨٤٥م، وأوضح أن الأب رينودو أخطأ فى وصفه المخطوط بأنه لإثنين من الرحالة المسلمين، إذ لم يكن هناك سوى رحالة واحد هو تاجر اسمه سليمان ألف جزءًا من المخطوط عام ٢٣٧ هـ/ ٨٥٢م. أما صاحب الجزء الثانى واسمه أبو زيد حسن السيرافى فلم يكن إلا هاويًا جغرافيًا يتسقط المعلومات عن الهند والصين من ألسنة التجار والبحريين بسيراف. وهو لا يدعى لنفسه السفر إلى تلك البلاد، بل يعترف صراحة أنه جمع بعض المعلومات وبوبها وضم فصولها إلى مذكرات التاجر سليمان.

وفى عام ١٩٢٢م نشر جابرييل فيران ترجمة جديدة للكتاب مع مقدمة طويلة. وفى عام ١٩٤٨م نشر جان سوفاجيه ترجمة فرنسية للجزء الأول فقط من الكتاب، وهو رحلة التاجر سليمان عرض فى مقدمتها للترجمات السابقة وأبدى

نقده لما ورد فيها من أخطاء سواء نتيجة لعدم القراءة الصحيحة لبعض ألفاظ النص العربى أو لإساءة تفسير ألفاظ أخرى. وقد نشر مع هذه الترجمة النص العربى للجزء المترجم.

ويشكك سوفاجيه فى نسبة هذا الجزء الأول إلى سليمان التاجر ويرجع فى ذلك إلى عدة أدلة: أولها: أن اسم التاجر سليمان يأتى فى سياق النص بالإشارة إليه بضمير الغائب «وذكر سليمان التاجر..»، وذلك بعد عدة صفحات تحدث فيها بضمير المتكلم، والواقع أن هذا أسلوب كان متعارفًا عليه فى مؤلفات ذلك الزمن على نحو ما نجد فى «مروج الذهب» للمسعودى (المتوفى ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) الذى يستخدم الضميرين معًا: ضمير المتكلم حينًا والغائب حينًا عندما يقول من حين لآخر: قال أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى. وثانيها: أن أبا زيد نفسه الذى دون الجزء الثانى من الكتاب لم يذكر لنا اسم مؤلف الجزء الأول الذى قام هو بإكماله. وتعليقنا أنه لم يذكر أيضًا اسم مؤلف آخر. أما دليل سوفاجيه الثالث على التشكيك فى نسبة الجزء الأول إلى سليمان التاجر، أن المسعودى حين أشار إلى أخبار الصين والهند فإنه لم يذكر اسم سليمان التاجر، كما أشار إلى عنوان الكتاب كل من المروزى (ت ٢٩٤هـ/ ٩٠٦م) والبيرونى (٣٦٢ ـ ٤٤٨هـ / ٩٧٣ ـ ١٠٥٦م) دون الإشارة إلى اسم المؤلف كما هى العادة. لكن ابن الفقيه حوالى عام ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م ـ أى بعد حوالى نصف قرن فقط ـ نسب الكتاب صراحة إلى سليمان التاجر.

ـ٣ـ

وكلمة «أخبار» تعنى مجموعة روايات ترد دون نظام منطقى حول موضوع محدد، ينسب مؤلف الكتاب كلا منها إلى من رواها له. وهذه هى الصيغة النموذجية لكتب الأحاديث النبوية. ونحن نجد انتشار هذا العنوان فى عناوين المؤلفات التى ظهرت فى القرن الثالث الهجرى، مثل: أخبار بنى مازن (٢٠٩هـ)، أخبار قضاة البصرة (٢٠٩هـ)، أخبار الحجاج (٢٠٩هـ).. وهذه

الكتب لمؤلفين مجهولين، وأخبار قضاة مصر للكندى (٢٤٦هـ)، وأخبار مصر لمجهول (٢٦٩هـ)، وأخبار قضاة بغداد لابن الساعى (٢٧٤هـ)، وأخبار الحلاج لمجهول (٢٧٤هـ)، وأخبار المصنفين لمجهول (٢٧٤هـ)[١]،وأخبار الزمان للمسعودى قبل ٣٤٦هـ (حيث إنه أشار إليه كثيرًا فى «مروج الذهب» الذى يرجع تاريخه إلى عام ٣٤٦هـ، وكان من ثلاثين جزءاً لم يتبق منها إلا الجزء الأول فى مكتبة فينا[٢]).

ولما كانت صفحة العنوان مفقودة، والصفحة الموجودة بالمخطوط دخيلة وعنوانها: «سلسلة التواريخ»، فقد حذفها سوفاجيه فى طبعته العربية عام ١٩٤٨م، فى حين أثبتها كل من رينودو فى ترجمته الفرنسية عام ١٨١٧م، ورينو فى كل من النص العربى وترجمته الفرنسية عام ١٨٤٥م، وجابرييل فيران فى ترجمته الفرنسية عام ١٩٢٢م. وقد فضلنا حذفها حيث إنه لا علاقة لها بالنص. أما عنوان الكتاب فقد أمدنا به أبو زيد حسن السيرافى فى سطوره الأولى من الجزء الثانى الذى أضافه للكتاب، حيث كتب أنه الكتاب الثانى من «أخبار الصين والهند».

ولغة الكتاب أقرب إلى لغة الحديث منها إلى لغة الكتابة، فالجمل قصيرة وبسيطة تؤدى المعنى مباشرة، ومع بساطتها فهى لغة سليمة وإن كان الزمن يفصل بيننا وبين بعض المفردات التى لم تعد متداولة بعد أكثر من ألف عام. ونلاحظ أن مؤلفىْ الجزأين قد حرص كل منهما على شرح بعض الألفاظ من حين لآخر ولاسيما إذا كانت ألفاظًا غير عربية. وقد رجح سوفاجيه فى مقدمة ترجمته أن المؤلفيْن ـ ولأسباب تتعلق باستخدامهما ألفاظًا معينة غير عربية حرّفت بحيث تلائم النطق العربى ـ كانا من أهل سيراف الواقعة حاليًا فى إيران والتى كانت تعدّ من أشهر موانئ الطرق الملاحية بين الخليج العربى وشرق آسيا، وعلى أساس أن مثل هذا التلاقح بين الفارسية والعربية لا تتاح له الفرصة إلا على السواحل وعند تلاقى الأنهار الكبرى، مثل: دجلة والفرات. مع ملاحظة أن

---

(١) انظر مقدمة الترجمة الفرنسية لجان سوفاجيه (ص ٢٠).

(٢) مقدمة مروج الذهب ص٦.

أسلوب الكتاب كان متأثراً بلا شك بأسلوب الرواة الذين كانوا يدلون بمعلوماتهم أو شهاداتهم أو قصصهم.

وإذا كانت الصلة غامضة بين الجزء الأول من «أخبار الصين والهند» وما كتبه بعض الجغرافيين العرب المعاصرين واللاحقين، مثل: ابن خرداذبة (ت ٣٠٠هـ/ ٩١٣م) فى كتابه المسالك والممالك، فإن ابن الفقيه الذى عاش بعد نصف قرن مباشرة من تأليف الجزء الأول من «أخبار الصين والهند»، وألف كتابه «البلدان» عام ٢٩٠هـ/ ٩٩٣م[1]. قد سطا سطواً واضحًا على الكتاب ناسخًا دون تغيير كلمة صفحات كاملة، فى حين أن هناك جملاً أخرى متناثرة منقولة دون تغيير متجاهلاً ذكر مصدره.

أما المسعودى فإنه يعترف صراحة فى كتابه «مروج الذهب» بمعرفته بأبى زيد الحسن السيرافى صاحب الجزء الثانى من «أخبار الصين والهند»، لهذا لم يكن من الغريب أن نعثر على فقرات فى مروجه شديدة الشبه بما فى «أخبار الصين والهند»، مما دفعنا إلى أن نلحق فى آخر الكتاب بعض هذه الفقرات ليقارن القارئ بنفسه بينها وبين ما ورد فى «أخبار الصين والهند»، بالإضافة إلى ما أشرنا إليه فى الهوامش تنبيهًا لهذا التشابه. وقد اكتشف سوفاجيه بذكاء أنه حتى الخطأ بسبب النسخ قد وقع فيه المسعودى دون أن يفطن إليه. مثال ذلك: حين كتب الناسخ فى الجزء الأول من «أخبار الصين والهند»، وهو بسبيل الحديث عن جزائر لنجبالوس وفيها خلق كثير عراة: الرجال منهم والنساء، غير أن على عورة المرأة ورقًا من ورق الشجر، فإذا مرت به المراكب جاءوا إليها بالقوارب الصغار والكبار وبايعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد، وما يحتاجون (إليه) من كسوة لأنه لا حر ولا برد عندهم. فقد أضاف الناسخ من عنده كلمة «إليه»، وبذلك أصبحت «ما» اسما موصولاً بمعنى «الذى»، بعد أن كانت أداة نفى حتى يتسق

(١) فُقدَ كتاب «البلدان»، لكن المقدسى (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) فى كتابه «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم»، وياقوت الحموى (٥٩٣ ـ ٦٤٤هـ/ ١١٧٩ ـ ١٢٢٩م) فى كتابه «معجم البلدان»، قد استشهدا به فى كثير من المواضيع. ويرى مترجمه إلى الفرنسية دى جويه Goeje أنه من المحتمل أن يكون المختصر الذى عُمل لهذا الكتاب قد كتبه «على بن حسن الشيزرى» حوالى عام ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م (دائرة المعارف الإسلامية).

المعنى، وإلا فكيف يكونون عراة ويشترون الثياب؟ هذا التناقض وقع فيه المسعودى بحيث لم يعد خطأ ناسخ إذ كتب فى مروجه: «وتتصل هذه الجزائر بجزائر النجمالوس، وهى أمم عجيبة الصور عراة يخرجون فى القوارب عند اجتياز المراكب بهم، معهم العنبر والنارجيل، فيتعاوضون بالحرير وشىء من الثياب[1]».

خطأ آخر فى نقل المسعودى عن الجزء الأول من أخبار الصين والهند عند الحديث عن بلهرا أشرف ملوك الهند: «وماله دراهم تُدعى الطاطريه وزن كل درهم درهم ونصف بسكّة الملك، وتأريخه فى سنة من مملكة (ت وفاة) من كان قبله: ليس كَسُنّةِ العرب من عصر النبى عليه السلام». فناسخ الجزء الأول من (أخبار الصين والهند) أسقط كلمة (وفاة) قبل (من كان قبله) حتى يستقيم المعنى، فكتب المسعودى فى مروجه: «وله دراهم طاهرية وزن الدرهم منها وزن درهم ونصف، سكته بدء تاريخ ملكهم أو مملكتهم»[2]. رغم أن مؤلف الجزء الأول من «أخبار الصين والهند» أوضح أن تأريخهم ليس كتأريخ العرب الذى يبدأ من عصر النبى عليه الصلاة والسلام، بل بالملوك.

والملاحظ أن المسعودى أخضع لأسلوبه المميز النص الذى نقل عنه، فأضاف وحذف بحيث أصبح الأسلوب أكثر جمالا. وعلى سبيل المثال: فبينما يذكر «أخبار الصين والهند» سمكة صغيرة تهاجم الحيتان، فيقول إنها: «صارت فى أصل أذنها لا تفارقها حتى تقتلها» نجد المسعودى يورد ذلك بأسلوبه، فيقول: «فإذا بغت السمكة بعث الله عليها سمكة نحو الذراع تدعى اللشك، فتلصق بأصل أذنها فلا يكون منها خلاص، فتطلب قعر البحر، وتضرب بنفسها حتى تموت، فتطفو فوق الماء، فتكون كالجبل العظيم».

أما إذا قارنا بين «أخبار الصين والهند» و«عجائب الهند» المؤلَّف ما بين أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل القرن الرابع الهجرى (النصف الأول من القرن

(١) المسعودى، مروج الذهب، ص ١٣١.
(٢) المرجع السابق، ص١٤٦.

العاشر الميلادى» من ناحية الشكل، نجد أن معظم الأخبار والقصص فى عجائب الهند منسوبة إلى رواتها بأسمائهم، فى حين لا نجد المثل فى «أخبار الصين والهند»، وربما كان ذلك راجعًا إلى أسبقية هذا الكتاب فى التأليف حين لم يكن منهج التأريخ قد تطور بحيث نقل عن رواية الأحاديث والسُّنة التى كانت تحرص على إثبات المصادر التى تأخذ عنها.

❀❀❀

وتتركز أهمية كتاب «أخبار الصين والهند» إلى أنه من أوائل الكتب التى استفادت مما وصلت إليه خبرات الملاحين العرب فى المحيط الهندى حتى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، وأعادت فأفادت كمرشد بحرى لهؤلاء الملاحين، فهو يقدم لنا صورة عن الطرق البحرية التى سلكها العرب حتى ذلك الوقت فى المحيط الهندى غربًا حتى ساحل إفريقيا الشرقى، وحتى ميناء كانتون فى الصين.

وقد حدد لنا مؤلف الكتاب الثانى أبو زيد حسن السيرافى تاريخ تأليف الجزء الأول فى مقدمة كتابه بعام ٢٣٧ هجرية. ومع أن أبا زيد لا يذكر تاريخ تأليفه الجزء الثانى من الكتاب إلا أنه يبدؤه بذكر التمرد الذى وقع فى الصين، والذى حدد المسعودى تاريخه فى «مروج الذهب» بعام ٢٦٤هـ (وهو التمرد الذى ذكر أنه نقله من رواية أبى زيد حسن السيرافى له). ورواية التمرد تتابع مسلسلها حتى القضاء عليه ومصرع زعيمه وعودة ملك الصين إلى عاصمة ملكه، لكن بعد أن ضعفت قبضته على حكام الأقاليم قانعًا منهم بالطاعة دون إمداده بالأموال. وفى الوقت نفسه يُعلن لنا المسعودى أنه يكتب هذه الرواية عام ٣٣٢هـ، أى بعد حوالى مائة عام من تأليف الجزء الأول. فإذا افترضنا أن المسعودى التقى فى شبابه بأبى زيد حسن السيرافى فى شيخوخته، فإننا يمكن أن نستنتج أن أبا زيد حسن السيرافى قد أضاف الجزء الثانى فى نهاية القرن الثالث الهجرى أو أوائل الرابع، أى بعد حوالى نصف قرن وليس عشرين عامًا على

نحو ما يذكر د. أنور عبد العليم فى كتابه «الملاحة وعلوم البحار عند العرب»[1] ناسبًا هذا الجزء الثانى إلى ابن وهب بن هبّار بن الأسود من قبيلة قريش، الذى يذكر الجزء الثانى أنه غادر البصرة بعد ثورة الزنج التى وقعت فيها عام ٢٥٧هـ/ ٨٧١م وقبل تمرد الصين عام ٢٦٤هـ، وأنه كان مجرد راوٍ لأبى زيد حسن السيرافى لقصة مقابلته لملك الصين، وهى قصة تتكرر لدى الكُتّاب العرب مع اختلاف أبطالها ومسرح أحداثها. فالعشرون عامًا هى الفرق بين تأليف الجزء الأول من الكتاب وثورة الزنج وليست بين تأليفىْ الكتابين. أما هذه المدة الأخيرة فيقدرها الدكتور حسين فوزى فى كتابه «حديث السندباد القديم» بستين عاماً[2]، وهو الأقرب إلى الصحة فى رأينا.

ـ ٤ ـ

ومنذ اكتشف العرب سر الرياح الموسمية استطاعوا الملاحة إلى أقصى الشرق (الصين وقتئذ) وإلى الساحل الإفريقى الشرقى، فى حين لم يكتشف الأوربيون هذه الرياحَ إلا عام ٤٥م على يدى «هيبالوس» Hippalus اليونانى الذى عاش فى زمن الإمبراطور كلاوديوس. من هنا فإن اتصال شبه الجزيرة العربية بساحل إفريقيا الشرقى من ناحية والطريق البحرى المؤدى إلى الهند والصين من ناحية أخرى كان قد بدأ قبل الميلاد.. ولئن كان من المتعذر الاتصال بشرق إفريقيا ـ رغم قربها النسبى ـ إلا عن طريق البحر، فإن الطريق إلى الهند والصين ـ رغم طوله ـ لم يقتصر على المسالك البحرية، بل كانت هناك طرق أخرى برية عبر آسيا الوسطى فيما عرف «بطريق الحرير»، ولاسيما منذ فتوحات الإسكندر المقدونى (ت. ٣٢٣ق.م) الذى وصلت جيوشه حتى شواطئ أنهار البنجاب الخمسة فى الهند، حيث ترك حكامًا يونانيين مكونًا بذلك ما يعرف باسم الإمبراطورية الهلينستية، على حين وصلت فى أقصى الشرق إلى بخارى وراء نهر سيحون[3]. أما حدودها الغربية فامتدت حتى واحة سيوة فى صحراء مصر الغربية.

(١) أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٩م، ص٣٥.

(٢) د. حسين فوزى، حديث السندباد القديم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٣م، ص٢٣.

(٣) ايرين فرانك وديفيد براونستون، طريق الحرير، ترجمة أحمد محمود، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ١٠٩.

وفى الوقت نفسه كانت هناك محاولات - برية وبحرية من الجانب الآخر: الهندى والصينى، للاتجاه غربًا وصلت إلى حدود التماس مع محاولات العرب. فكانت أبعد نقطة بلغتها السفن الصينية غربًا حتى عهد أسرة منج هى ميناء كويلون Quillon فى الجنوب الغربى من الهند حيث كانت يَنْكات كانتون تأتى إليها فى القرن الثانى عشر[1] ، كما أن بوارج الهنود - أى سفن القراصنة كما سمّاها العرب - وصلت إلى البحار العربية فى المحيط الهندى فى تلك العصور.

وفيما يتعلق بالتجارة العربية فى المحيط الهندى مع الهند والملايو والصين، فإن العرب ساروا طبقًا للطرق البحرية القديمة فى منطقة جنوبى العراق وسواحل الخليج العربى فى العصر الساسانى (٢٢٦ - ٦٣٠م)، وقد بلغت المستعمرة العربية الفارسية بميناء كانتون بالصين حدّاً من القوة استطاعت معه فى عام ٧٥٨م أن تضع يدها على المدينة وتنهبها وتغادرها عن طريق البحر. وأن أبا عبيدة عبد الله بن القاسم التاجر العمانى سافر بتجارة إلى الصين قبل نهب كانتون، وأن تاجراً إباضيا آخر من البصرة اسمه «النضر بن ميمون» سافر إلى الصين ما بين أواخر القرن الثامن أو أوائل التاسع الميلادى، ويمكن اعتبار هؤلاء التجار الإباضيين بمثابة ممهدى الطريق لمؤلفى «أخبار الهند والصين»: سليمان التاجر وأبو زيد حسن السيرافى. ومعنى ذلك أن العرب استطاعوا أن يعرفوا الكثير عن البلاد التى تقع فى شرق المحيط الهندى فى ذلك العهد المبكر السابق للقرن التاسع معتمدين فى ذلك إما على رحلاتهم الشخصية أو روايات لتجار وملاحين عرب. فابن رسته (حوالى ٩٣٠م) يروى لنا حقائق عن الهند ينقلها عن شخص اسمه

(١) ينكات جمع ينك Junk ، أى سفينة صينية (قاموس النهضة لإسماعيل مظهر). ويناقش د. جورج فضلو حورانى فى كتابه «العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى»، موضوع أبعد نقطة وصلت إليها السفن الصينية غرباً بالنسبة لهم وشرقًا بالنسبة للعرب حتى عهد أسرة منج (١٣٦٨ - ١٦٤٤م)، فيشير إلى موضوع اللبس الذى نشأ نتيجة تعبير «السفن الصينية» الذى ذكره الجغرافيون العرب - ومنهم مؤلفا كتاب «أخبار الصين والهند» - فالسفن الصينية المزعومة قد تكون بنيت فى الصين، لكن لا يحتمل إلى حدٍ بعيد أنه كان يملكها أو يسيّرها صينيون، (ص٢٢٣).

أبو عبد الله محمد بن إسحاق أمضى عامين من حياته فى قمار (أى خمير Khmer الاسم القديم لكمبوديا)، وحدث هذا على أغلب الظن فى بداية القرن التاسع الميلادى، ويعدّه بعض المؤرخين المصدر الأساسى عن الهند ليس فقط بالنسبة لابن رسته وحده بل أيضا بالنسبة لابن خرداذبه (ت ٩١٣م) وغيره من الجغرافيين العرب.

أما فيما يتعلق بالطريق البرى الذى يخترق آسيا الوسطى إلى الصين، فإن كراتشكوفسكى يرى فى كتابه «تاريخ الأدب الجغرافى العربى» أن أول معرفة للعرب بهذا الطريق كان عن طريق الوصف الذى يقدمه تميم بن بحر المطوعى، الذى يتبين من نسبته أنه ينتمى إلى فئة المتطوعة من جنود الثغور الإسلامية الذين كثر عددهم على تخوم الخلافة خاصة فى آسيا الوسطى. وقد توجه تميم إلى خاقان الترك التفزغز فى مهمة دبلوماسية على ما يبدو فى الفترة ما بين عامى ١٤٢ ـ ١٨٤هـ/ ٧٦٠ ـ ٨٠٠م، وحفظ لنا ياقوت الحموى (٥٧٤ ـ ٦٢٥هـ/ ١١٧٩ ـ ١٢٢٩م) وابن خرداذبه أهم فقرات هذه الرحلة، كما يمكن تتبع أثر تميم عند بعض الجغرافيين، مثل: أبى دُلَف (القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى) والإدريسى (٤٩٩ ـ ٥٦٦هـ/ ١١٠٠ ـ ١١٦٥م). وباسم الخليفة الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ/ ٨٤٢ ـ ٨٤٧م) مشجع الرحلات تقترن الرحلة الشهيرة لسلاَّم الترجمان إلى الأصقاع الشمالية[1].

ـ ٥ ـ

وفيما يتصل بالمحيط الهندى أو البحر الشرقى الكبير ـ كما لقبه رحالتنا وجغرافيونا القدامى ـ فقد ركبه ملاحو الفرس والعرب والصينيين من أقدم العصور، وأطلق الفرس والعرب على أجزائه أسماء طبقًا لمواقع الأرض التى تقع شواطئها عليه، فهو بحر فارس فيما يعرف اليوم بالخليج الفارسى أو العربى وخليج عمان، وبحر لار أو لاروى أمام شواطئ السند والماليبار غربى شبه جزيرة

(١) كراتشكوفسكى (أغناطيوس يوليانوفتشى)، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، وقام بمراجعته إيجور بيلايف، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالجامعة العربية، القاهرة، ١٩٥٧م، صفحات ١٣٨ ـ ١٣٩.

الهند وحول أرخبيل اللكاديب والمحلديب، وبحر الهِرْكَنْد فيما بين جزيرة سِرَنْديب (سيلان ثم سيرالانكا حاليّا) وقاع خليج بِنْغاله، وبحر كلاه أو شلاهط بين جزائر النكوبار والأنْدَمان وشبه جزيرة مَلَقا، وجزائر الهند الشرقية أو الزابج (سومطره حاليّا) وبحر كُنْدْرَنج (خليج سيام)، وبحر الصَّنْف (الهند الصينية)، وبحر صَنْخَىْ سابع بحار الصين التى يعبرها المسافر بين البصرة أو سيراف وخانفو ميناء الصين الأكبر، وإلى الشرق من الصين تقع جزائر الوفواق(١).

ويمكننا حساب الزمن الذى كانت تستغرقه الرحلات وقتئذٍ على النحو التالى طبقًا لما ورد فى «أخبار الصين والهند»:

من البصرة أو سيراف إلى مسقط	شهران قمريان
من مسقط إلى كولم ملى	شهر قمرى
من كولم إلى كله بار	شهر قمرى
من كله إلى صنف فولاو	شهر قمرى
من صنف فولاو إلى كانتون	شهر قمرى

ولهذا فإن الرحلة تقدر بستة شهور بالإضافة إلى فترات الوقوف فى الموانئ وقضاء الصيف فى كانتون، لأن الصينيين ـ كما جاء فى «أخبار الصين والهند» ـ كانوا يحجزون السفن حتى انتهاء فصل الرياح الموسمية المواتية لمجىء السفن إلى كانتون، وذلك ضمانًا لإتاحة فرص عادلة أمام توزيع البضائع المستوردة، وربما تخفيضًا للأسعار بإغراق السوق بالسلع.

ويقول المسعودى: إن الموسم الذى كان العرب يبحرون فيه عامة فى الجزء الغربى من المحيط الهندى عندما تكون الشمس فى القوس Sagittarius ،أى فى النصف الثانى من نوفمبر والنصف الأول من ديسمبر. ثم تعود السفن من كانتون مع الرياح الموسمية الشرقية إلى مضيق ملقا فيما بين أكتوبر وديسمبر،

(١) د. حسين فوزى، حديث السندباد القديم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٣م، صفحات ٨ ـ ٩.

وتعبر خليج البنغال ثانية فى يناير،وتسير من كولم إلى رَيْسوت بعُمان فى فبراير أو مارس، وهى لاتزال مستعينة بالرياح الموسمية الشمالية الشرقية. لكنها قد تستعين فى السير من رَيْسوت إلى مسقط بأول نسمة رقيقة من الرياح الموسية الجنوبية الغربية فى إبريل، ثم تختتم رحلتها مرة أخرى فى الخليج العربى. . فرحلة الذهاب والعودة معًا كانت تستغرق إذن عامًا ونصف عام، وكان الرجال يقضون الصيف التالى للرحلة بين أهليهم قبل الرحلة المقبلة فى مطالع الشتاء[1].

وقد انعكس غياب التجار العمانيين فترات طويلة عن وطنهم على الفقه الإباضى بسبب نشأة مشكلات تتصل بالزكاة والجزية وعشور التجارة. فقد أفتى محمد بن محبوب بن الرحيل فى القرن الثالث الهجرى ـ التاسع الميلادى ـ بأن التجار المسلمين من أهل عمان الذين يخرجون بأموالهم للتجارة سنينا ثم يعودون، ولم يكونوا قد أدوا الزكاة، فإنهم يؤدونها عند وصولهم. كذلك أمر الإمام المهنا ابن جيفر اليحمدى (٢٢٦ ـ ٢٣٧هـ/ ٨٤٠ ـ ٨٥١م) بأن يكون والى صُحار هو المسئول عن أخذ زكاتهم، ولم تكن الزكاة تؤخذ ممن يأتى بعنبر أو لؤلؤ، كما أنها لم تكن تؤخذ من التجار المسلمين من غير أهل عمان الذين يمرون بها فى طريقهم إلى بلادهم[2]. أما أهل الذمة الذين كانوا يختلفون إلى عمان من سيراف وغيرها مرة فى كل شهر أو أكثر ثم يعودون إلى بلادهم، فلم تكن تؤخذ منهم جزية حتى يتموا فى عُمَان ثلاثة شهور[3].

ـ٦ـ

أما الطريق الملاحى الآخر للعرب فى المحيط الهندى، فهو الطريق من موانئ شبه الجزيرة العربية إلى السواحل الإفريقية. وترجع علاقات العرب بساحل

(١) جورج فضلو حورانى،العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى، ترجمه وزاد عليه د. السيد يعقوب بكر،مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م،انظر صفحات ٢١٩ ـ ٢٢١.

(٢) ابن جعفر الأزكوى، الجامع، تحقيق عبد المنعم عامر، مسقط، وزارة التراث، ١٩٨١م، ص١٣١ ـ ١٤١.

(٣) المرجع السابق، جـ٣، ص ١٤٥ ـ ١٤٦. وانظر أيضًا عُباده كُحيلة، عن العرب والبحر، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٤٦.

إفريقيا الشرقى إلى ما قبل الإسلام، على نحو ما أشارت إليه سورة الفيل فى القرآن الكريم، وما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: «ولدت عام الفيل». وهو العام الذى جاء فيه أبرهه ملك اليمن من قبل نجاشى الحبشة يقود جيشًا لهدم الكعبة انتقامًا من إساءة أحدثها عربى فى كنيسة كان قد بناها فى صنعاء، فلما أشرف على الكعبة هلك هو وجيشه بطيور تحمل فى مناقيرها وأرجلها طينًا متحجراً (سجيل)(١).

وفى بداية الدعوة عندما اشتد عذاب قريش لمن أسلم ورأى الرسول ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق حتى يحمل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه. وخرج المسلمون إلى الحبشة وكانت هذه أول هجرة فى الإسلام، فقد هاجر إلى الحبشة اثنان وثلاثون رجلا(٢). وقد حاولت قريش أن ترد المسلمين الذين هاجروا إلى بلادهم لكن النجاشى رفض.

وقد اتفق عدد كبير من المؤرخين على الهجرة التى ترجع إلى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥م) حين اتبع عبد الملك سياسة قَبَلِيَّة فى شبه الجزيرة العربية فاستعان ببعض القبائل على بعضها الآخر، ومنها حملات الحجاج بن يوسف الثقفى والى الخليفة بالعراق على أهل عُمَان، مما اضطر حاكميْها سليمان وسعيد ابنى عباد بن عبد الجُلندى إلى الهجرة إلى شرق إفريقيا برفقة جماعة من قبيلة الأزد العمانية. ولا يعقل أن يلجأ حاكما عمان إلى بلاد يأمنان فيها على حياتهما وحياة أسرهما دون أن يكون فيها وجود عمانى سابق(٣). وترجح بعض المصادر أن هذه الهجرة حدثت عام ٧٠هـ/ ٦٩٠م(٤).

---

(١) انظر على سبيل المثال: «الجامع لأحكام القرآن للقرطبى»، والمصحف المفسر لمحمد فريد وجدى.

(٢) محمد فرج، العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٥٨م، ص٧٨.

(٣) الشيخ سعيد بن على المغيرى، جهينة الأخبار فى طريق زنجبار، وزارة التراث القومى والثقافة، سلطنة عمان، ط٢، ١٩٨٦م، مقدمة الطبعة الأولى، ص٣١.

(٤) وزارة الإعلام والثقافة، عمان وتاريخها البحرى، سلطنة عمان، ١٩٧٩م، ص٩٢.

بعد ذلك تتابعت هجرات العرب إلى الساحل الشرقى لإفريقيا ابتداء من الزيدية الذين استقروا حول لامو فى جنوب الصومال حاليًا. كما قام جماعة من المهاجرين من قبيلة الحرث الهاربين من استبداد حكامهم بالبحرين بإقامة مدينتى مقديشيو وبراوه فى أوائل عهد الفاطميين الذين حكموا مصر ما بين عامى (٣٥٨ ـ ٥٦٦هـ/ ٩٦٩ ـ ١٧٧١م)، كما يقول المسعودى وطردوا الزيدية إلى الداخل حيث اندمجوا بالزنج.

ولعل أبعد الهجرات أثرًا فى تاريخ المسلمين فى شرق إفريقيا، هى تلك الهجرة التى أتت من شيراز واستقرت فى القسم الجنوبى من الساحل أو ما يقابل الجزء الساحلى من دولة تنزانيا حاليًا، وأسست أول دولة سواحلية عظيمة عرفت بسلطنة الزنج[1]. وكان ذلك بزعامة على بن الحسن الشيرازى منشئ مدينة كلوه عام ٢٩٥هـ على ما يرجح[2]. ويذكر ذلك المسعودى الذى زار ساحل إفريقيا فى القرن الرابع الهجرى. وذكر أن الإمارات تمتد من مقديشيو شمالاً حتى سفالة جنوبًا مروراً بمدن، مثل: براوه وماليندى وسيوى وكلوه، بالإضافة إلى جزيرتى زنجبار وبمبه.

أما الطريق الملاحى الثالث المشهور الذى عرفه العرب فى القرون الوسطى، فهو بحر الروم (البحر المتوسط حاليًا).

ويلاحظ أندريه ميكيل أن الأخبار فى كتاب الصين والهند مأخوذة من التجار لا البحارة، ودليله على ذلك أن البحارة يعرفون البحر والساحل: شواطئه ومرافئه، فى حين أن التجار يرون داخل البلاد التى يقيمون فيها سنوات طوالاً أحيانًا، بعد اجتيازهم البحر وواجهات القارات المينائية.. وهكذا أصبحت أخبار الصين والهند على نطاق واسع مصدر معلومات عن التنظيم السياسى والاقتصادى والسياسى والاجتماعى والثقافى فى البلاد المجتازة... كما يفسر الاهتمام بالمجتمعات الغريبة فى جميع أخبار الصين والهند بقدرة هذه المجتمعات

(١) د. صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم، زنجبار، مكتبة الانجلو المصرية، سلسلة الألف كتاب ٢٩٩، ١٩٥٩م، ص٦.
(٢) المرجع السابق، ص٧.

على التذكير ـ تماثلاً أو تناقضًا ـ بالمجتمع الذى ينتمى إليه مصنف الكتاب، على نحو الحديث عن العادات الغذائية. وفى أحيان أخرى تأتى مصاغة بألفاظ تشى ـ دون وعى الكاتب ـ بذهنيته أو كما نقول اليوم أيديولوجيته[1].. فالقناعة والحكمة والنجاح تلازم جميعها جانب الذين يتقيدون بأقرب قدر بأعراف شبيهة بأعراف دار الإسلام، ولم يخل الجزء الأول من هذه المقارنة لكنها كانت تصاغ عادة بأسلوب موضوعى يترك للقارئ استخلاص الحكم القيمى بنفسه. أما فى الجزء الثانى ـ أو كما يسميه «الملحق» ـ فإنه على النقيض من ذلك، تصبح اللهجة قارصة جدًا، ويظهر الاتهام والحكم القاطع باحتقار، يمليه شعور الانتماء إلى الإيمان الصحيح وحده: أناس يشوهون أنفسهم... أو يقامرون بالنرد على أصابعهم المقطوعة، وملوك يعهرون بناتهم، وممارسات يتصور الإنسان فيها بوقاحة أنه وجد وسيلة الاتصال المباشر بالله ـ ويقول أبو زيد: «والله جل وعز نحمده على ما اختار لنا وطهرنا من ذنوب الكفر» ـ التى يعتقد الأغراب أنهم يجزون عليها[2].

كما يبدى أندريه ميكيل ملاحظة ذكية حين يقول: إنه فى العهد الذى كانت فيه الحركة التجارية كثيفة فى الاتجاهين، لا يرد فى «أخبار الصين والهند» إلا ذكر المواد المجلوبة إلى العراق، كالعنبر والكافور والحجارة الكريمة والمعادن والخشب الثمين... وغيرها من المواد، وبالتالى تستغنى هذه الرؤية عن فكرة التبادل الاقتصادى، ويحل محلها مفهوم الحاجة الوحيدة الاتجاه[3].

وعند دراسة الاختلاف بين ما يسميه المصنف الأصلى والملحق الذى كتبه أبوزيد السيرافى أحد مصادر المسعودى يقول أندريه ميكيل: إنه يصعب التفريق أحيانًا فى الملحق بين البحارة والتجار، وإن كانت تظهر فيه معلومات تهم الملاحين، ولاسيما تلك المتصلة بشروط الملاحة أو تقنيات بناء السفن.. ويجب

(١) أندرية ميكيل، جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادى عشر، ترجمة إبراهيم خورى، وزارة الثقافة السورية، دمشق، جـ١، فصل٤، صفحات ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٢) المرجع السابق ص٢٢٠.

(٣) المرجع السابق ص٢١٥.

أن نعزو إليهم تزايد العجائب فى الملحق، رغم أن أبا زيد يؤكد فى خاتمة كتابه أنه يرتاب فى رواياتهم ويحرص على الخبر الموضوعى[1].

* * *

وقد استعنت لإخراج الكتاب فى طبعته الحالية بطبعتين سابقتين: أولاهما: طبعة سوفاجيه للكتاب الأول التى نشرها مع ترجمته الفرنسية ومقدمته وتعليقاته عام ١٩٤٨م، والثانية: هى التى نشرها رينو للكتاب الثانى مع ترجمته الفرنسية ومقدمته وتعليقاته عام ١٨٤٥م. وقد استفدنا استفادة كبيرة من هذه المقدمات - ومقدمة جابرييل فيران لترجمته الفرنسية للكتابين والتى نشرها عام ١٩٢٢م - وتعليقاتهم ولفتاتهم الذكية ومقارناتهم بالنصوص المشابهة فى تراثنا الجغرافى البحرى، وأضفنا إليها ما جد من معلومات فى ضوء ما جد من مصادر، كما وضعنا عناوين لفقرات الكتابين وقصصهما تيسيراً للقراءة واستيعابًا لمضمون الكتابين. كما قمنا بعمل تسعة كشافات: الأعلام، فالأماكن الجغرافية، فالبحار، ثم الحيوان والطيور، فالنبات، فالمأكولات والأشربة، فالمعادن والجواهر، والعطور، والأقمشة، فالألفاظ التى شرحها مؤلفا الكتابين، وأخيراً أسماء الجغرافيين والرحالة الذين وردت أسماؤهم أو مؤلفاتهم فى الكتاب، كما ألحقنا بالكتاب بعض النصوص المشابهة من كتاب «مروج الذهب للمسعودى» لإتاحة الفرصة للقارئ ليقارن بنفسه بين النصوص المعاصرة للكتاب، بالإضافة إلى نص من الدينورى لقصة مشابهة لأخرى وردت فى الكتاب الثانى.

راجيًا بذلك أن أكون قد ساهمت فى أن يصبح فى متناول القارئ العربى المعاصر - لأول مرة - هذا المرجع الهام عن تراثنا البحرى العربى، الذى لم يكن متاحًا الاطلاع عليه إلا مع ترجمات المستشرقين الفرنسيين له فى طبعات فرنسية مما جعله بعيداً عن متناول أيدى وعيون الجمهور العربى، رغم متعة قراءته ككتاب فى أدب الرحلات، وأهميته كمرجع مبكر فى تاريخ الملاحة العربية.

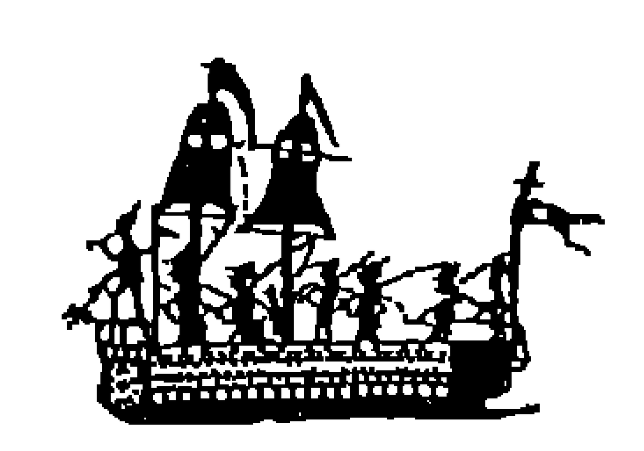
❀❀❀

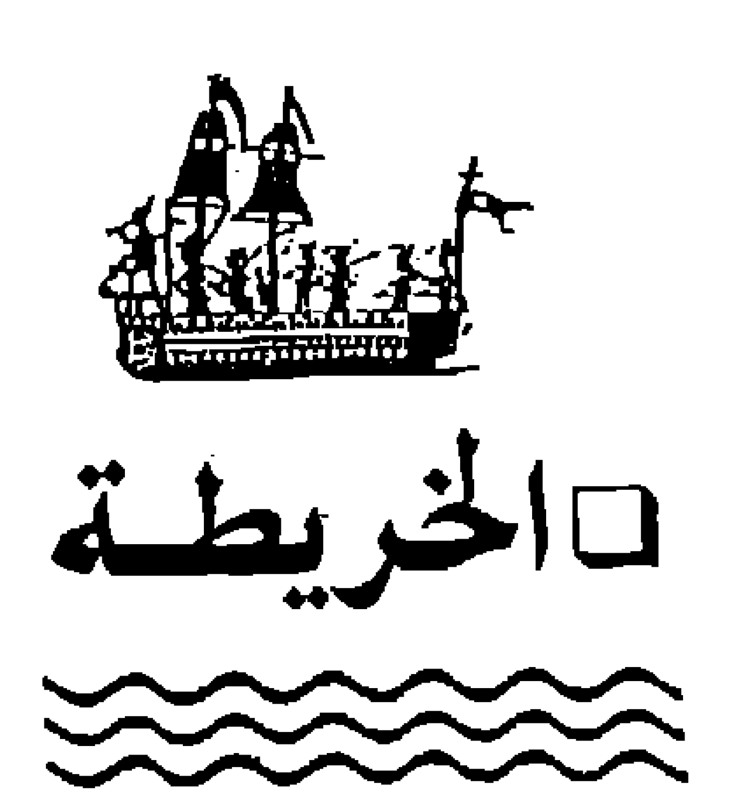
(١) صفحة ١٠٤.

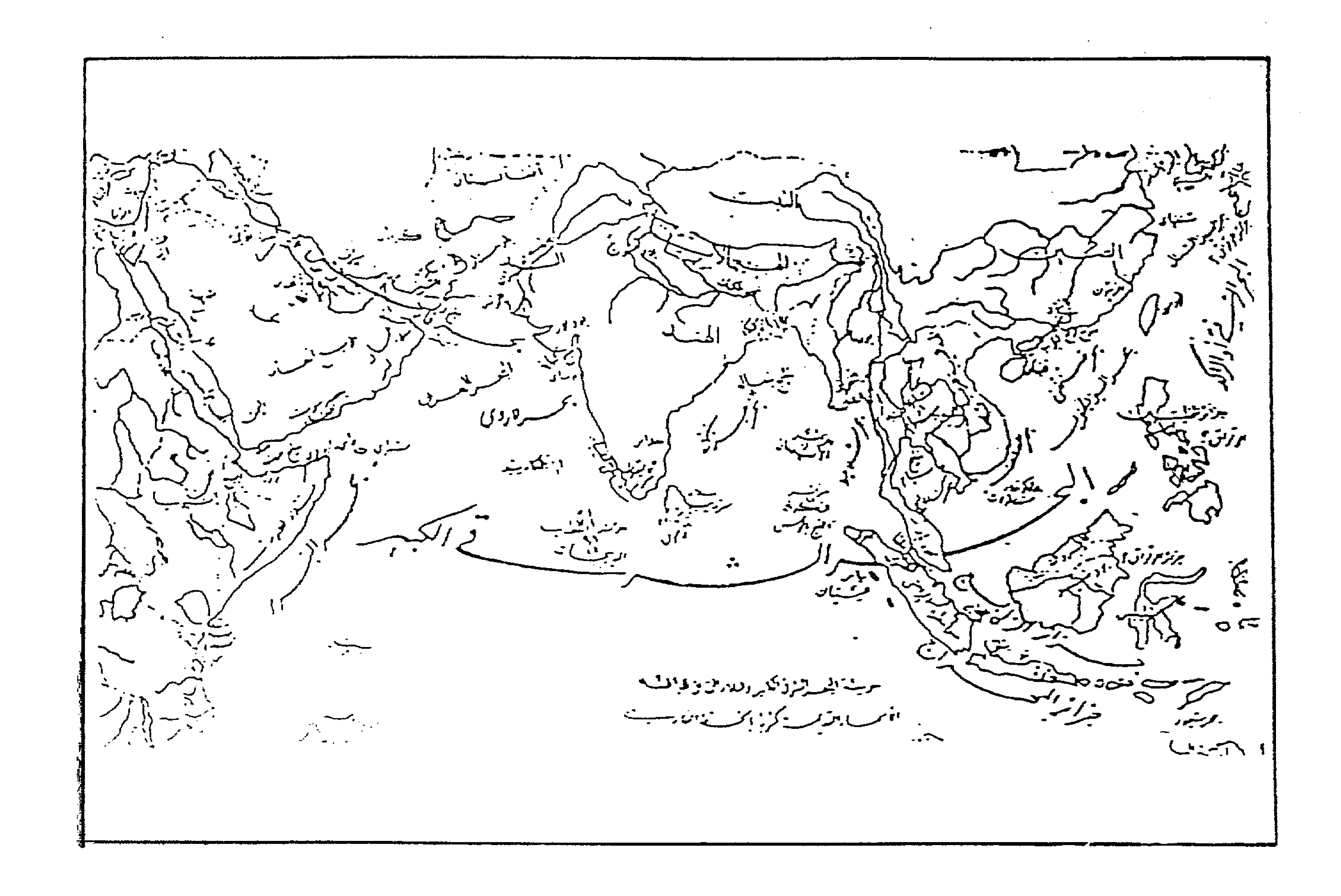
وأؤكد مرة أخرى أنه لولا الصداقة المتبادلة التى نشأت بينى وبين الكتاب لما أتيح لى الكشف عن بعض أسراره وخباياه (فلا أزعم أننى حصلت عليها كلها، والفرصة متاحة لغيرى)، ولما أمكن من ناحيتى أن أبذل هذا الجهد المضنى اللذيذ فى تتبع صلات الكتاب بمؤلفات أخرى معاصرة أو لاحقة له، إذ حرصت أن يكون القارئ على بيّنة من المناخ الفكرى والمؤلفات الموازية والمكانة التاريخية لمثل هذا الكتاب. وهذا ما دفعنى إلى إرفاق بعض الصفحات فى نهايته من مؤلفات رحالة وجغرافيين عرب تناولت موضوعات مشابهة لتلك التى تناولها «أخبار الصين والهند».

يوسف الشارونى

أغسطس ١٩٩٩م




□ الخريطة


أفغانستان
التبت
الهند



غلاف الترجمة الفرنسية

COLLECTION ARABE

PUBLIÉE SOUS LE PATRONAGE DE L'ASSOCIATION GUILLAUME BUDÉ

'AḪBĀR AṢ-ṢĪN WA L-HIND

RELATION DE LA CHINE ET DE L'INDE

RÉDIGÉE EN 851

TEXTE ÉTABLI, TRADUIT ET COMMENTÉ

PAR

JEAN SAUVAGET
PROFESSEUR AU COLLÈGE DE FRANCE



PARIS
SOCIÉTÉ D'ÉDITION « *LES BELLES LETTRES* »
95, BOULEVARD RASPAIL
1948



الكتاب الأول

الحوت أو سمكة شبه الجزيرة

. . . . فيه

سمك ربما ظهر ونبت على ظهره الحشيش والصدف وربما أرسى عليه أصحاب المراكب يقدِّرون أنه جزيرة فإذا فطنوا أقلعوا من عنده[(١)]. وربما نشر هذا السمك أحد جناحيه الذى فى صلبه فيكون مثل الشراع. وربما رفع رأسه (عن الماء) فتراه كالشىء العظيم. وربما نفخ الماء من فيه فيكون كالمنارة العظيمة، فإذا سكن البحر اجتمع السمك فحواه بذنبه ثم يفتح فمه فيُرى السمك فى جوفه يغيض كأنه يغيض فى بئر. والمراكب التى تكون فى البحر تخافه فهم يضربون بالليل بنواقيس، مثل: نواقيس النصارى مخافة أن تتكئ على المركب فتغرقه[(٢)].

---

(١) تتكرر قصة الكائنات البحرية التى تخدع البحارة والمسافرين فى السفن بحيث يظنونها جزيرة، وما تلبث أن تتحرك فيدركون خطأهم الفادح: فى كتب العجائب والقصص الشعبى والرحالة العرب. نجد هذا ـ على سبيل المثال ـ فى كتاب عجائب الهند ولو أن السمكة هنا تصبح سلحفاة حركتها النيران التى أوقدها ركاب السفينة التى رست عليها «فرموا أنفسهم إلى الماء وتعلقوا بالقارب والدونيج» (ص٦٦) وقد استوحى قاصنا الشعبى ما تداوله رحالتنا عن هذا النوع من الجزر الخادعة المتحركة ـ والوهمية ربما ـ فى السفرة الأولى من سفرات السندباد، حين أعلن صاحب المركب أن الجزيرة التى رست عليها سفينة السندباد ومن معه إن هى إلا سمكة كبيرة رست وسط البحر فبنى عليها الرمل فصارت مثل الجزيرة وقد نبتت عليها الأشجار من قديم الزمان، «فلما أوقدتم عليها النار أحست بالسخونة فتحركت، وفى هذا الوقت تنزل بكم فى البحر فتغرقون جميعاً، فاطلبوا لأنفسكم النجاة» (ألف ليلة وليلة، جـ٣، ص٤٥).

(٢) أكثر أنواع الحيتان تتجنب السفن وتفزع منها إلا حوت العنبر الضخم (الاسبرماسيتى) الذى عرف بالشراسة والشر. ويميزه البحارة والصيادون بإرساله زفيره فى عمود منفرد من فتحة أنف واحدة، فى حين الحوت البلينى يخرج زفيره المتكاثف فى عمودين لازدواج فتحتى أنفه (حسين فوزى، حديث السندباد القديم، صفحات ١٦١، ١٦٢). لكن الحوت الاسبرماسيتى ليس له زعنفة ظهرية كما فى بعض أنواع الحيتان الأخرى حتى يمكن رؤيته سمكا مثل الشراع. ويفسر الدكتور حسين فوزى ذلك الخلط بأن القدماء رأوا أكثر من نوع واحد من الحيتان دون أن يميزوا بين أنواعها.

الوال واللشك

وفى هذا البحر سمكة اصطدناها يكون طولها عشرين ذراعًا، فشققنا بطنها، فأخرجنا منها أيضًا سمكة من جنسها. ثم شققنا بطن الثانية فإذا فى بطنها مثلها، وكل هذا حى يضطرب يشبه بعضه بعضًا فى الصورة. ولهذا السمك الكبير يُدعى الوال مع عِظَم خلقه سمكة تدعى اللشك طولها قدر ذراع، فإذا طغت السمكة وبغت وآذت السمك فى البحر سُلطت عليها هذه السمكة (الصغيرة)[٣] فصارت فى أصل أذنها ولا تفارقها حتى تقتلها. وتلتزق بالمركب فلا تقرب (إلى) المركب هذه السمكة الكبيرة فَرَقًا من الصغيرة.

وفى هذا البحر أيضًا سمكة يحكى وجهها وجه الإنسان، تطير فوق الماء، واسم هذا السمك الميج. وسمك آخر من تحت الماء يرصده حتى إذا سقط ابتلعه، ويسمى هذا السمك العنقتوس. والسمك كله يأكل بعضه بعضا.

جزائر تملكها امرأة

البحر الثالث[٤] بحر هركند[٥] وبينه وبين بحر لاروى[٦] جزائر كثيرة، يقال إنها

(٣) نلاحظ هنا إسقاط المؤلف إنسانيته والفكر الأخلاقى الذى يتبناه على تصرفات الأسماك فى البحار، فكما أن الله يسلط على الطغاة أصغر الأسباب ليقتص منهم، كذلك فإن هذا السمك الذى يبتلع بعضه بعضًا تستطيع سمكة صغيرة أن تنتقم من طغيانه فتلصق بأذنها ولا تتركها حتى تقتلها. ونلاحظ أيضا أن الفعل سُلط مبنى للمجهول ولا ينسب إلى فاعل بالذات. وقد أورد المسعودى فى مروجه نفس العلاقة بين اللشك والسمك المعروف بالأوال وبنفس الخلفية الإنسانية الأخلاقية (مروج الذهب، ص٩٤)، كما نجده لدى أكثر من جغرافى ورحّالة، إما لأن بعضهم نقل عن البعض الآخر حيث نجد استخدام أفعال واحدة، وإما لتشابه الفكر العربى، وعلى سبيل المثال: نجد القزوينى فى كتابه عجائب المخلوقات يورد نفس المعلومة مستخدمًا نفس الأسلوب (ص٩٢).

(٤) السطور الأولى من الكتاب مفقودة، لكننا نستطيع بالاطلاع على كتاب مثل «مروج الذهب» للمسعودى أن نستنتج أن البحر الأول بحر فارس ممّا يلى البصرة والأبلة والبحرين. والبحر الثانى هو بحر لاروى الممتد من مصب نهر الهندوس حتى مدينة جوا، وعليه بلاد صيمور وسوبارة وتابة وسندان وكنبايه وغيرها من السند والهند (مروج الذهب، ص١٢٨).

(٥) بحر هركند هو خليج البنغال حاليًا، وسمّاه القزوينى بحر الصين (عجائب المخلوقات ص٧٨).

(٦) بحر لاروى: بحر العرب.

ألف وتسع مائة جزيرة[٧] وهى فرق ما بين هذين البحرين لاروى وهركند. وهذه الجزائر تملكها امرأة، ويقع فى هذه الجزائر عنبر عظيم القدر، فتقع القطعة مثل البيت ونحوه، وهذا عنبر ينبت فى قعر البحر نباتًا، فإذا اشتد هيجان البحر قذفه من قعره مثل الفطر والكمأة[٨] . وهذه الجزائر التى تملكها المرأة عامرة بنخل النارجيل، وبُعد ما بين الجزيرة والجزيرة فرسخان وثلثة وأربعة، وكلها عامرة بالناس والنارجيل، ومالهم الودع، وهذه الملكة تذخر الودع فى خزائنها. ويقال: إن أهل هذه الجزائر لا يكون أصنع منهم حتى أنهم يعملون القميص مفروغا منه نسجا بالكمين والدّخْرِيصيْن[٩] والجيب، ويبنون السفن والبيوت، ويعملون سائر الأعمال على هذا النسق من الصنعة. والودع يأتيهم على وجه الماء وفيه روح فتؤخذ سعفة من سعف النارجيل فُتطرح على وجه الماء فيتعلّق فيها الودع، وهم يدعونه الكستج.

جبل فى جزيرة سرنديب هبط عليه آدم

وآخر هذه الجزائر سرنديب فى بحر هركند وهى رأس هذه الجزائر كلها، وهم يدعونها الديبَجات و(بجانب) منها مغاص اللؤلؤ وبحرها كله حولها. وفى أرضها جبل يُدعى الرهون وعليه هبط آدم عم وقدمُه فى صفا رأس هذا الجبل منغمسة فى الحجر: فى رأس هذا الجبل قدم واحدة. ويقال: إنه عم خطا خطوة أخرى فى البحر. ويقال: إن هذه القدم التى على رأس الجبل نحو من سبعين ذراعا[١٠].

---

(٧) يرى الدكتور حسين فوزى فى حديث السندباد القديم أنها جزر الديبجات التى زارها ابن بطوطة وسماها «ذيبة المهل». وتعرف اليوم باسم «أرخبيل المحلديب» ص١٦٢.

(٨) الكَمْأة: اسم للجمع أو للواحدة: فُطر أرضى يتنفخ حاملاً أبواغه فتجنى وتؤكل مطبوخة، ويختلف حجمه تبعا لنوعه «المعجم الوسيط».

(٩) الدّخْرص: ما يوصَّل به بدن الثوب ليتسع (المعجم الوسيط)، وترجمها رينو بمعنى حاشية ثمينة (كُلفة) فى أكمام الثوب. والمقصود من أنهم يعملون القميص مفروغا منه، أى من قطعة قماش واحدة.

(١٠) وردت هذه المعلومة فى أكثر من كتاب من كتب الرحالة والجغرافيين العرب مثل: «عجائب الهند»، بزرك بن شهريار (ص١٤٥) و«تحفة النظار» لابن بطوطة (صفحتا ٣٥٥ و٣٥٨) ويضيف فيران فى ترجمته الفرنسية أن آدم هبط على هذا الجبل بعد أن طرده الله من الجنة، فى حين يذكر المسعودى فى مروجه أن حواء هبطت فى جده وأن قبرها لايزال موجودا، كما يذكر أن أصل العطور الهندية يرجع إلى أوراق شجر الجنة التى كان يغطى بها آدم عريه بعد سقطته، ويذكر سوفاجيه فى تعليقه على ترجمته الفرنسية أن هذا الأثر كان منسوباً إلى بوذا، ثم أتى المسلمون فنسبوه إلى آدم.

وحول هذا الجبل معدن الجوهر: الياقوت الأحمر والأصفر والآسمانجونى[١١].
وفى هذه الجزيرة ملكان، وهى جزيرة عظيمة عريضة فيها العود والذهب والجوهر وفى بحرها اللؤلؤ والشَّنك، وهو هذا البوق الذى يُنفخ فيه مما يذخرونه[١٢].

زوجة فى مقابل كل جمجمة رجل

وفى هذا البحر إذا رُكب إلى سرنديب جزائر ليست بالكثيرة غير أنها واسعة لا تضبط. منها جزيرة يقال لها الرامنى[١٣] فيها عدة ملوك وسعتها يقال ثمانمائة أو تسعمائة فرسخ وفيها معادن الذهب وأماكن تدعى فنصور يكون الكافور الجيد منها. ولهذه الجزائر جزائر تليها: منها جزيرة يقال لها النيان[١٤]. لهم ذهب كثير وأكلهم النارجيل وبه يتأدمون[١٥] ويدهنون. وإذا أراد أحد منهم أن يتزوج لم يزوَّج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم، فإذا قتل اثنين زُوج اثنتين وكذلك إذا قتل خمسين زُوِّج خمسين امرأة بخمسين قحفا. وسبب ذلك أن أعداءهم كثير فمن أقدم على القتل أكثر كان رغبتهم فيه أوفر. وفى هذه الجزيرة ـ أعنى الرامنى ـ فيلة كثيرة وفيها البقَّم[١٦] والخيزران، وفيها قوم يأكلون الناس، وهى تشرع على بحرين: هركند وسلاهْط.

جزائر العراة

وبعد هذا جزائر تُدعى لَنْجَبالوس[١٧] وفيها خلق كثير عراة الرجال منهم

(١١) الأسمانجونى: اللون الأزرق الخفيف (المعجم الوسيط).
(١٢) يذخرونه: هنا بمعنى يقبلون عليه إقبالاً شديداً. (١٣) الرامنى أو الرامى: جزء من جزيرة سومطره.
(١٤) النيان: وصف عجائب الهند هذه الجزيرة وصفًا مماثلاً (ص١١٥).
(١٥) يتأدمون: يأكلون، ومنها الإدام بمعنى الطعام.
(١٦) البقَّم: شجر من نوع القرنيات الفراشية، ورقه كورق شجر اللوز، وساقه حمراء.
(١٧) قارن ما جاء هنا عن هذه الجزائر بما أورده جغرافيون آخرون:
ابن خرداذبه: فى البحر ناس بيض يلحقون المراكب سباحة والمركب فى سرعة الريح يبيعون العنبر بالحديد يحملونه بأفواههم. وطعامهم الموز والسمك الطرى والنارجيل وأموالهم الحديد وهم يجالسون التجار.
المسعودى: وتتصل هذه الجزائر بجزائر لنجبالوس وهم أمة عجيبة الصورة عراة. يخرجون فى القوارب

والنساء، غير أن على عورة المرأة ورقًا من ورق الشجر. فإذا مرت بهم المراكب جاءوا إليها بالقوارب الصغار والكبار وبايعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد، وما يحتاجون من كسوة لأنه لا حر عندهم ولا برد.

آكلو لحوم البشر

ومن وراء هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال لهما أندامان وأهلهما يأكلون الناس أحياء. وهم سود مفلفلو الشعور مناكير(١٨) الوجوه والأعين، طوال الأرجل. فرج أحدهم ـ يعنى ذكره ـ مثل الذراع: عراة ليست لهم قوارب ولو كانت لهم لأكلوا كل من مر بهم. وربما أبطأت المراكب فى البحر وتأخر بهم المسير بسبب الريح فينفد ما فى المراكب من الماء فيقربون إلى هؤلاء فيستقون الماء، وربما أصابوا منهم ويفلتون أكثر.

جبال الفضة

وبعد هذه الجزائر جبال ليست على الطريق يقال إن فيها معادن فضة وليست بمسكونة. وليس كل مركب يريدها يصيبها، وإنما دلّ عليها جبل منها يقال له الخشنامى، مر به مركب فرأوا الجبل فقصدوا له فلما أصبحوا انحدروا إليه فى قارب ليحتطبوا وأوقدوا نارًا، فانسكبت الفضة فعلموا أنه معدن. فاحتملوا ما

=عند اجتياز المراكب بهم، معهم العنبر والنارجيل وغير ذلك فيتعاوضون بالحديد لا يبيعون ذلك بالدراهم والدنانير.

الإدريسى: هى جزيرة كبيرة وفيها خلق كثير بيض الألوان، والرجال فيها والنساء يمشون عراة، وربما استتر النساء بورق الشجر. والتجار يدخلون إليهم بالمراكب الكبار والصغار ويشترون من أهلها العنبر والنارجيل بالحديد، وأكثر أهلها يشترون الثياب فيلبسونها فى بعض الاوقات. والحر والبرد فى هذه الجزيرة قليل لقربهم من خط الاستواء. وطعام أهلها الموز والسمك الطرى والنارجيل، وأموالهم وجل بضائعهم الحديد ويجالسون التجار.

القزوينى: فيه أمة يلحقون المركب بالسباحة عند هبوب الريح، ويبيعون العنبر بالحديد ويحملونه بأفواههم.

(١٨) مناكير الوجوه: وجوههم قبيحة.

أرادوا منه، فلما ركبوا اشتد عليهم البحر فرموا بجميع ما أخذوا منه. ثم تجهز الناس بعد ذلك إلى هذا الجبل فلم يعرفوه. ومثل هذا فى البحر كثير لا يُحصى من جزائر ممنوعة لا يعرفها البحريون، فمنها مالا يقدرون عليه.

عاصفة بحرية

وربما رؤى فى هذا البحر سحاب أبيض يُظلّ المراكب فيشرع منه لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر، فيغلى له ماء البحر: مثل الزوبعة، فإذا أدركت الزوبعة المركب ابتلعته. ثم يرتفع ذلك السحاب فيمطر مطرا[19] فيه قِذى البحر فلا أدرى أيستقى السحاب من البحر أم كيف هذا. وكل بحر من هذه البحار تهيج فيه ريح تثيره وتهيجه حتى يغلى كغليان القدور، فيقذف ما فيه إلى الجزائر التى فيه ويكسر المراكب ويقذف السمك الميت الكبار والعظام، وربما قذف الصخور والجبال كما يقذف القوس السهم. وأما بحر هركند فله ريح غير هذه ما بين المغرب إلى بنات نعش فيغلى لها البحر كغليان القدور ويقذف العنبر الكثير، وكلما كان البحر أغزر وأبعد قعرًا كان العنبر أجود. وهذا البحر ـ أعنى هركند ـ إذا عظمت أمواجه تراه مثل النار يتقد. وفى هذا البحر سمك يدعى اللُّخم، وهو سمك يبتلع الناس.

قوم أمتعتهم قليلة

...فى أيديهم كل هذه فيقلّ المتاع. ومن أسباب قلة المتاع حريق ربما وقع بخانفو، وهو مرفأ السفن ومجتمع تجارات العرب وأهل الصين فيأتى الحريق على المتاع. وذلك أن بيوتهم هناك من خشب ومن قنا[20] مشقق. ومن أسباب ذلك

(١٩) قذى بكسر القاف وجمعها أقذاء. ترجمها كل من رينو وفيران وسوفاجيه بمعنى رذاذ. وذكر سوفاجيه أن المسعودى قرأها فى عجلة بفتح القاف فكتبها فى مروجه: «ويمطرون عقيب ذلك مطرًا مهلكًا فيه أنواع من قذى البحر». (المروج، ص١٣١).

(٢٠) قنا: هنا بمعنى بوص.

أن تنكسر المراكب الصادرة والواردة أو يُنهَبوا أو يُضطروا إلى المقام الطويل فيبيعون المتاع فى غير بلاد العرب. وربما رمت بهم الريح إلى اليمن أو غيرها فيبيعون المتاع هناك. وربما أطالوا الإقامة لإصلاح مراكبهم وغير ذلك من العلل.

مسلم يتولى حكم المسلمين بخانفو

وذكر سليمان التاجر أن بخانفو وهو مجتمع التجار رجلاً مسلمًا يولّيه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلى تلك الناحية بتوخّى ملك الصين ذلك. وإذا كان فى العيد صلّى بالمسلمين، وخطب ودعا لسلطان المسلمين. وأن التجار العراقيين لا يُنكرون من ولايته شيئًا فى أحكامه وعمله بالحق، وبما فى كتاب الله عز وجل وأحكام الإسلام.

رحلة السفن الصينية بين سيراف وعُمَان

فأما المواضع التى يردونها ويرقون إليها فذكروا أن أكثر السفن[٢١] الصينية تُحمل من سيراف وأن المتاع تُحمل[٢٢] من البصرة وعُمَان وغيرها إلى سيراف، فيعبّى فى السفن الصينية بسيراف، وذلك لكثرة الأمواج فى هذا البحر وقلة الماء فى مواضع منه. والمسافة بين البصرة وسيراف فى الماء مائة وعشرون فرسخًا. فإذا عبّى المتاع بسيراف استعذبوا منها الماء وخطفوا ـ وهذه لفظة يستعملها أهل البحر: يعنى يُقلعون ـ إلى موضع يقال له مسقط، وهو آخر عمل عمان: والمسافة من سيراف إليه نحو مائتى فرسخ.

وفى شرقى هذا البحر فيما بين سيراف ومسقط من البلاد سيف[٢٣] بنى

---

(٢١) السفن الصينية: معناها هنا التى قد تكون بُنيت فى الصين، لكن لا يحتمل أن يملكها أو يسيِّرها صينيون (انظرْ حورانى، العرب والملاحة فى المحيط الهندى، ص٢٢٣).

(٢٢) تُحمل: تُشحن.

(٢٣) سيف جمعها أسياف: ساحل البحر أو كل ساحل (المعجم الوسيط).

الصَّفاق وجزيرة أَبْركاوان. وفى هذا البحر جبال عمان، وفيها الموضع الذى يسمى الدردور، وهو مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية. وفيها الجبلان اللذان يقال لهما كُسَيْر وعوير وليس يظهر منهما فوق الماء إلا اليسير: فإذا جاوزنا الجبال صرنا إلى موضع يقال له صُحار عمان فنستعذب[٢٤] الماء من مسقط من بئر بها، وهناك فئة غنم من بلاد عمان.

ومنها إلى الهند

فتخطف المراكب منها إلى بلاد الهند وتقصد إلى كولم ملى، والمسافة من مسقط إلى كولم ملى شهر على اعتدال الريح. وفى كولم ملى مسلحة[٢٥] لبلاد كولم ملى تجبى السفن الصينية وبها ماء عذب من آبار. فيؤخذ من الصينية ألف درهم ومن غيرها من السفن ما بين عشرة دنانير إلى (عشرين) دينار. وبين مسقط وبين كولم ملى وبين هركند نحو من شهر، وبكولم ملى يستعذبون الماء، ثم تخطف المراكب ـ أى تقلع ـ إلى بحر هركند، فإذا جاوزوه صاروا إلى موضع يقال له لنجبالوس لا يفهمون لغة العرب ولا ما يعرفه التجار من اللغات. وهم قوم لا يلبسون الثياب، بيضٌ كواسج[٢٦]. وذكروا أنهم لم يروا منهم النساء، وذلك أن رجالهم يخرجون إليهم من الجزيرة فى زواريق منقورة من خشبة واحدة ومعهم النارجيل وقصب السكر والموز وشراب النارجيل: وهو شراب أبيض، فإذا شرب ساعة يؤخذ من النارجيل فهو حلو مثل العسل، فإذا ترك ساعة صار شرابًا، وإن بقى أيامًا صار خلاًّ، فيبيعون بالإشارة، وربما وقع إليهم العنبر اليسير فيبيعونه بقطع الحديد، وإنما يتبايعون بالإشارة يدًا بيد، إذ كانوا لا يفهمون اللغة. وهم حذاق بالسباحة فربما استلبوا من التجار الحديد ولا يعطونهم شيئا.

---

(٢٤) نستعذب: نأخذ الماء العذب.

(٢٥) مسلحة: نقطة خفر. جمعها: مسالح.

(٢٦) كواسج: بدون لحى.

(٢٧) أى شراباً مسكراً.

قوم لباسهم الفوط

ثم تخطف المراكب إلى موضع يقال له كلاه بار: المملكة والساحل كلٌّ يقال له بار. وهى مملكة الزابج متيامنة[٢٨] عن بلاد الهند. يجمعهم ملك، ولباسهم الفوط: يلبس السرىّ والدنىّ منهم الفوطة الواحدة. ويستعذبون هناك الماء من آبار عذبة، وهم يؤثرون ماء الآبار على مياه العيون والمطر. ومسافة ما بين كولم (ملى) و(كلاه) هى قريبة: من هركند إلى كله بار شهر. ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له تيومة[٢٩]، وبها ماء عذب لمن أراده، والمسافة إليها عشرة أيام. ثم تخطف المراكب إلى موضع يقال له كَنْدُرَنْج: عشرة أيام وفيها ماء عذب لمن أراده، وكذلك جزائر الهند إذا احتُفرت فيها الآبار وُجِدَ فيها الماء العذب. وبها جبل مشرف[٣٠] ،وربما كان فيه الهراب[٣١] من العبيد واللصوص.

وآخرون يلبسون فوطتين

ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له صِنْفْ: مسيرة عشرة أيام، وبها ماء عذب، ومنه يؤتى بالعود الصِّنفى، وبها ملك، وهم قوم سمر يلبس كل واحد منهم فوطتين. فإذا استعذبوا منها خطفوا إلى موضع يقال له صَنَف فولاو[٣٢]، وهى جزيرة فى البحر والمسافة إليها عشرة أيام وفيها ماء عذب. ثم تخطف المراكب إلى بحر ـ يقال له صَنْخَىْ ـ إلى أبواب الصين، وهى جبال فى البحر بين كل جبلين فرجة تمر فيها المراكب. فإذا سلّم الله من صنف فولاو خطف المراكب إلى الصين فى شهر، إلا أن الجبال التى تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام. فإذا

(٢٨) متيامنة: أى على يمين.

(٢٩) تيومة: يُرجع الأب رينو أصل هذه التسمية إلى القديس توما أحد حواريي السيد المسيح الذى قصد الهند لنشر المسيحية، واستشهد هناك، وقبره فى هذا الموضع بالقرب من مدراس. والاسم من أصل سريانى معناه بيت أو كنيسة توما.

(٣٠) جبل مشرف: جبل مرتفع.

(٣١) الهُراب: ملجأ.

(٣٢) صنف فولاو: فى نسخة رينو صندر فولات، فى حين يذكرها بزرك مؤلف «عجائب الهند» صندل فولات.

جازت السفينة الأبواب ودخلت الخور صارت إلى ماء عذب إلى الموضع الذى ترسى[٣٣] إليه من بلاد الصين، وهو يسمى خانفو: مدينة. وسائر الصين فيها الماء العذب من أنهار عذبة وأودية ومسالح وأسواق فى كل ناحية.

المدّ والجزر

وفيها مد وجزر مرتين فى اليوم[٣٤] والليلة، إلا أن المد يكون فيما يلى البصرة إلى جزيرة أَبَرْكاوان إذا توسط القمر السماء، وإذا قابل وسط السماء، ويكون الجزر عند طلوع القمر وعند مغيبه، والمد يكون بناحية الصين إلى قريب من جزيرة أبركاوان إذا طلع القمر، فإذا توسط السماء جزر الماء، فإذا غاب كان المد، فإذا كان فى مقابلة وسط السماء جزر.

قوم يشبهون الوحوش

وذكروا أن فى جزيرة يقال لها مَلْجان فيما بين سرنديب وكَلَه، وذلك من بلاد الهند فى شرقى البحر، قوم من السودان عراة إذا وجدوا الإنسان من غير بلادهم علّقوه منكّسا وقطّعوه وأكلوه نيئاً. وعدد هؤلاء كثير، وهم فى جزيرة واحدة، وليس لهم ملك، وغذاؤهم السمك والموز والنارجيل وقصب السكر، ولهم (مواضع يأوون إليها) شبيه (الوحوش) بالغياض والآجام.

حجر يُستخرج منه الكحل

وذكروا أن فى ناحية البحر سمكًا صغيراً طيّاراً يطير على وجه الماء يسمى جراد الماء. وذكروا أن بناحية البحر سمكًا يخرج حتى يصعد على النارجيل

(٣٣) ترسى: مضارع أرسى.
(٣٤) اليوم: المقصود به هنا نهاراً.

فيشرب ما فى النارجيل من الماء ثم يعود إلى البحر. وذكروا أن فى البحر حيوانًا يشبه السرطان، فإذا خرج من البحر صار حجرًا. قال: ويُتخذ منه كحل لبعض علل العين[٣٥].

وذكروا أن بقرب الزابج جبلاً يسمى جبل النار لا يُقدر على الدنو منه، يظهر منه بالنهار دخان وبالليل لهب نار، ويخرج من أسفله عين باردة عذبة وعين حارّة عذبة[٣٦].

الحرير لباس أهل الصين

ولباس أهل الصين الصغار والكبار الحرير فى الشتاء والصيف: فأما الملوك فالجيّد من الحرير، ومن دونهم فعلى قدرهم. وإذا كان الشتاء لبس الرجل السراويلين والثلثة والأربعة والخمسة وأكثر من ذلك على قدر ما يمكنهم، وإنما قصدهم أن يدفئوا أسافلهم لكثرة الندى وخوفهم منه. وأما الصيف فيلبسون القميص الواحد من الحرير ونحو ذلك، ولا يلبسون العمائم.

طعامهم وشرابهم

وطعامهم الأرز وربما طبخوا معه الكوشان[٣٧] فصبّوه على الأرز فأكلوه. فأما الملوك منهم فيأكلون خبز الحنطة واللحم من سائر الحيوان ومن الخنازير وغيرها.

---

(٣٥) ورد ذكر هذا السرطان الذى يتحول إلى حجر يؤخذ منه الكحل فى «عجائب الهند» بعنوان: الكحل من سرطان نهرى (ص١٣٩)، وفى «مروج الذهب» صفحات ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٣٦) قارن هذا بما ذكره جغرافيون آخرون عن هذا الجبل:

ابن الفقيه: وإن بقرب الزابج جبلاً يسمى جبل النار لا يقدر على الدنو منه. يظهر منه بالنهار دخان وبالليل لهب نار، ويخرج من أسفله عين باردة عذبة وعين حارة عذبة.

وصيف شاه: جزيرة بقرب الزابج، فيها جبل يقال له جبل النار، فلا يقدرون على الدنو منه. يظهر منه بالنهار دخان وبالليل لهب نار.

الإدريسى: وبالغرب من هذه الجزيرة فى البحر جزيرة صغيرة فيها جبل عال الذى لا يُوصل إلى أعلاه ولا إلى شىء منه لإحراقه كل ما قرب منه وذلك أنه يظهر منه بالنهار دخان عظيم وبالليل نار تتقد، ويخرج من أسفله عيون منها عذبة باردة وحارّة زعاق.

(٣٧) الكوشان ترجمها سوفاجيه: يَخْنَه، وهو حساء أساسه البصل والطماطم، كثير التوابل.

ولهم من الفاكهة التفاح والخوخ والأترج[٣٨] والرمان والسفرجل والكمثرى والموز وقصب السكر والبطيخ والتين والعنب والقثّاء والخيار والنبق والجوز واللوز والجلوز[٣٩] والفستق والإجّاص[٤٠] والمشمش والغبيراء[٤١] والنارجيل[٤٢].

وليس لهم فيها كثير نخل إلا النخلة فى دار أحدهم. وشرابهم النبيذ المعمول من الأرز، وليس فى بلادهم خمر ولا تُحمل إليهم ولا يعرفونها ولا يشربونها، ويعمل من الأرز الخل والنبيذ والناطف[٤٣] وما أشبه ذلك.

وعاداتهم الأخرى

وليس لهم نظافة ولا يستنجون بالماء إذا أحدثوا، بل يمسحون ذلك بالقراطيس الصينية. ويأكلون الميتة وما أشبهها مما يصنعه المجوس فإن دينهم يشبه دين المجوس. ونساؤهم يكشفن رؤوسهن ويجعلن فيها الأمشاط فربما كان فى رأس المرأة عشرون مشطا من العاج وغير ذلك. والرجال يغطون رؤوسهم بشىء يشبه القلانس، وسُنّتهم فى اللصوص أن يُقتل اللص إذا أُصيب.

أخبار بلاد الهند والصين أيضًا وملوكهما

أهل الهند والصين مجمعون على أن ملوك الدنيا المعدودين أربعة. فأول من

---

(٣٨) الأترج: واحدته الأُتْرُجّة والأترنجه، شجر من جنس الليمون.

(٣٩) الجِلَّوْز: شجر البندق.

(٤٠) الإَجَّاص: يطلق فى سوريا وفلسطين وسينا على الكمثرى، وكان يُطلق فى مصر على البرقوق (المعجم الوسيط).

(٤١) الغَبَيْراَه: شجر من فصيلة الورديات، منتشر فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية، ثماره صغيرة تؤكل أحيانا، خشبه جيد، يزرع للزينة (المنجد).

(٤٢) النارجيل: جوز الهند.

(٤٣) الناطف: ترجمها فيران: نوع من المربى. وترجمها سوفاجيه: حلويات. وفى المنجد: نوع من الحلوى كالرغوة البيضاء، سمى به لأنه ينطف أى يَقَطَّر قبل ابيضاضه.

يعدون من الأربعة ملك العرب وهو عندهم إجماع لا اختلاف بينهم فيه أنه ملك أعظم الملوك وأكثرهم مالاً وأبهاهم جمالاً، وأنه ملك الدين الكبير الذى ليس فوقه شيء. ثم يعد ملك الصين نفسه بعد ملك العرب ثم ملك الروم ثم بلهرا ملك المخرمى الآذان(٤٤).

فأما بلهرا هذا فإنه أشرف الهند وهم له مقرّون بالشرف. وكل ملك من ملوك الهند متفرد بملكه غير أنهم مقرّون لهذا، فإذا وردت رسلُه على سائر الملوك صلّوا لرسله تعظيمًا له. وهو ملك يُعطى العطاء كما تفعل العرب، وله الخيل والفيلة الكثيرة والمال الكثير، وماله دراهم تدعى الطاطريّة وزن كل درهم درهم ونصف بسكّة الملك. وتأريخه فى سنة من مملكته (وفاة) من كان قبله: ليس كسُنّة العرب من عصر النبى عَمّ بل تأريخهم بالملوك(٤٥). وملوكهم يعمِّرون وربما ملك أحدهم خمسين سنة، وتزعم أهل مملكة بلهرا إنما يطول مدة ملكهم وإعمارهم فى الملك لمحبتهم للعرب، وليس فى الملوك أشد حبّا للعرب منه، وكذلك أهل مملكته. وبلهرا اسم لكل ملك منهم ككسرى ونحوه وليس باسم لازم، ومُلك بلهرا وأرضه أولها ساحل البحر، وهى بلاد تدعى كُمْكَم متصلة على الأرض إلى الصين وحوله ملوك كثيرة يقاتلونه، غير أنه يظهر عليهم.

فمنهم ملك يُدعى ملك الجزر وهو كثير الجيش: ليس لأحد من الهند مثل خيله. وهو عدو العرب غير أنه مقر أن ملك العرب أعظم الملوك

وليس أحد من الهند أعدى للإسلام منه. وهو على لسان من الأرض، وأموالهم كثيرة وإبلهم ومواشيهم كثيرة ويتبايعون بالفضة التبر، ويقال إن لهم معادن وليس فى بلاد الهند آمن من السرق منها.

وإلى جانبه ملك الطاقى(٤٦) وهو قليل المملكة ونساؤهم بيض أجمل نساء

(٤٤) ملك المخرمى الآذان: أى الذين يلبسون الأقراط. وقد أثار ذلك دهشة البحارة والتجار العرب، كما سبق أن أثار دهشة اليونان والرومان.

(٤٥) أى يبدأ تأريخ العملة بتاريخ تولى كل ملك حكم بلاده، وليس ببدء تولى الأسرة الحاكمة.

(٤٦) الطاقى: تقع فى الشمال الغربى من الهند، وفى نسخة رينو العربية: الطافق.

الهند[٤٧]. وهو ملك موادع لمن حوله لقلة جيشه. وهو يحب العرب كحب بلهرا.

ويلى هؤلاء ملك يقال له دْهَرْمَ [٤٨] يقاتله ملك الجزر وليس له شرف فى الملك، وهو أيضًا يقاتل بلهرا كما يقاتل ملك الجزر. ودهرم هذا أكثر جيشًا من ملك بلهرا ومن ملك الجزر ومن (ملك) الطاقى، ويقال إنه إذا خرج إلى القتال يخرج فى نحو من خمسين ألف فيل ولا يخرج إلا فى الشتاء، لأن الفيلة لا تصبر على العطش فليس يسعه إلا الخروج فى الشتاء. ويقال إن قصارى[٤٩] عسكره نحو من عشرة ألف إلى خمسة عشر ألفا. وفى بلاده الثياب التى ليس لأحد مثلها: يدخل الثوب منه فى حلقة خاتم دقةً وحسنًا، وهو من قطن[٥٠]، وقد رأينا بعضها. والذى ينفَق فى بلاده الودع وهو عين البلاد يعنى[٥١] ماله. وفى بلاده الذهب والفضة والعود والنبات[٥٢] الصَّمَر الذى يُتخذ منه المذاب[٥٣].

وفى بلاده البُشان المعلم وهو الكركدن: له فى مقدم جبهته قرن واحد، وفى قرنه علامة صورة خلقة كصورة الإنسان فى حكايته. القرن كله أسود والصورة بيضاء فى وسطه. وهذا الكركدن دون الفيل فى الخِلْقه إلى السواد ما هو[٥٤] ويشبه الجاموس: قوى ليس كقوته شىء من الحيوان. وليس له مفصل فى ركبته

(٤٧) ذكر المسعودى فى مروجه نساء الطافق أو الطافن: ليس فى نساء الهند أحسن من نسائهم، ولا أكثر منهن بياضًا، وهن موصوفات الخلوات، مذكورات فى كتب الباه (ص١٤٦) .

(٤٨) رهمى فى كل من نسخة رينو ومروج الذهب.

(٤٩) قصارى مفردها مقصر: الذى يدق الثوب وينظفه (المعجم الوسيط). ويتنبه المسعودى إلى المبالغة هنا فيقول: والمكثر من الناس يغلو فى القول فى كثرة جنوده، فيزعمون أن عدد القصّارين والغسالين فى عسكره من عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألفا (ص١٤٧)، وهو ما يذكره هنا «أخبار الصين والهند».

(٥٠) قارن هذا بما ورد فى الجزء الثانى من هذا الكتاب. (ص ٧٥).

(٥١) أى العملة المتداولة وثروتها.

(٥٢) يقول المسعودى ومن بلده (أى بلد رهمى) يُحمل الشعر المعروف بالضمر الذى تُتخذ منه المذاب (جمع مذبة) بنصب العاج والفضة، يقوم بها الخدم على رؤوس الملوك فى مجالسها (المروج ص١٤٧) ، فى حين يرى فيران أنه شعر ذنب حيوان الياك المميز ذى الصوف الطويل، والذى يشبه الثور ويعيش فى التبت. كذلك يشير كل من فيران وسوفاجيه إلى أن المذاب قد تُصنع أيضًا من الحرير أو من ريش الطاووس.

(٥٣) المذاب مفردها مذبه.

(٥٤) أى مائل.

ولا فى يده وهو من لدن رجله إلى أبطه قطعة واحدة. والفيل يهرب منه. وهو يجتر كما تجتر البقر والإبل، ولحمه حلال قد أكلناه. وهو فى هذه المملكة كثير فى غياضهم، وهو فى سائر بلاد الهند، غير أن قرون هذا أجود. فربما كان فى القرن صورة رجل وصورة طاووس وصورة سمكة وسائر الصور(٥٥)، وأهل الصين يتخذون منها(٥٦) المناطق، وتبلغ المنطقة ببلاد الصين ألفى دينار وثلثة آلاف وأكثر على قدر حسن الصورة. وهذا كله يشترى من بلاد دهرم بالودع(٥٧) ، وهو عين البلاد.

وبعده ملك داخل ليس له بحر يقال له ملك لَكْشْمِيرُ(٥٨) ، وهم قوم بيض مخرّمو الآذان، ولهم جمال، وهم أصحاب بدو وجبال.

وبعده بحر عليه ملك يقال له التَنْلونْج(٥٩) وهو ملك فقير فخور يقع إليه العنبر الكثير، وله(٦٠) أنياب فيلة وعنده فلفل يؤكل رطبًا لقلته.

وبعد هذا ملوك كثيرة لا يعلم عددهم إلا الله تبارك وتعالى: منهم الموجَه وهم قوم بيض يشبهون الصين فى اللباس ولهم مسك كثير، وفى بلادهم جبال

---

(٥٥) قارن هذا بقول المسعودى: ذلك أن قرنه أبيض، فى وسطه صورة سوداء فى ذلك البياض: إما صورة إنسان أو صورة طاووس بتخطيطه وشكله، أو صورة سمكة، أو صورته فى نفسه، أو صورة نوع من الحيوان مما يوجد فى تلك الديار (المروج، ص١٤٧) وقول الدميرى (٧٤٢ ـ ٨٠٨هـ) وإذا نشر (أى الكركدن) قرنه طولا تخرج فيه الصور المختلفة بياض فى سواد، كالطاووس والغزال وأنواع الطير والشجر وصور بنى آدم وغير ذلك. ومن عجائب النقوش يتخذون منه صفائح على سرر (أى أسرة) الملوك ومناطقهم ويتغالون فى أثمانها (حياة الحيوان الكبرى، ص٢٤٣)، كذلك ذكر ابن بطوطة فى رحلته أنه شاهد الكركدن فى الهند مرتين: مرة صرع فيها الكركدن فرس الفارس الذى اعترض طريقه وهرب، ومرة ركب مع السلطان الفيلة وأثاروا الكركدن وقتلوه وأخذوا رأسه (تحفة النظار، ص٢٦٤).

(٥٦) مناطق جمع منطقة: أى حزام.

(٥٧) يتكرر استخدام الودع كعملة فى أكثر من بلد فى «أخبار الصين والهند»، كما تكرر ذكره فى مؤلفات مماثلة مثل: «عجائب الهند» لبزرك بن شهريار و«تحفة النظار» لابن بطوطة: يستخدمه أهل جزائر ذيبة المهل (المالديف واللاكديف) وأهل مالى، ومدينة كوكو على النيل بالسودان (تحفة النظار، صفحات ٣٨٤، ٣٨٨، ٣٨٩).

(٥٨) ملك لكشمير، فى نسخة رينو: ملك الكاشيين، ويسميه المسعودى: ملك الكامن (ص١٤٨).

(٥٩) التنلونج، فى نسخة رينو: القيرنج، ويسميه المسعودى: ملك الإفرنج (ص ١٤٨).

(٦٠) له هنا بمعنى عنده.

بيض ليس شيء أطول منها، وهم يقاتلون ملوكًا كثيرة حولهم، والمسك الذى يكون فى بلادهم جيد بالغ.

ومن ورائهم ملوك المادبُد [٦١] مدائنهم كثيرة وهم إلى حيث[٦٢] الموجه وهم أكثر[٦٣]من الموجه، غير أن المادبد أشبه بالصين منهم. ولهم خدم خصيان مثل الصين عمال[٦٤] عليهم. وبلادهم تتصل ببلاد الصين، وهم مصالحون لصاحب الصين غير أنهم لا يسمعون له. وللمادبد فى كل سنة رسل إلى ملك الصين وهدايا، وكذلك ملك الصين يهدى إليهم. وبلادهم واسعة، وإذا دخلت رسل المادبد بلاد الصين حُفظوا مخافة أن يغلبوا على بلادهم لكثرتهم[٦٥]، وليس بينهم وبين بلاد الصين إلا جبال وعقاب[٦٦].

ويقال إن لملك الصين من أمهات المدائن أكثر من مائتى مدينة، ولكل مدينة ملك وخصى، وتحت كل مدينة مدائن. فمن مدائنهم خانفو وهى مرسى السفن تحتها عشرون مدينة. وإنما تسمى مدينة إذا كان لها جادم، والجادم، مثل: البوق ينفخ فيه وهو طويل، وغلظه ما يجمع الكفين جميعًا، وهو مطلى بدواء الصينيات، وطوله ثلثة أو أربعة أذرع، ورأسه دقيق بقدر ما يلتقمه الرجل، ويذهب صوته نحوًا من ميل. ولكل مدينة أربعة أبواب، فعلى كل باب منها من الجادم خمسة تُنفخ فى أوقات من الليل والنهار، وعلى (باب) كل مدينة عشرة

---

(٦١) المادبد، فى نسخة رينو: المابد، وعند المسعودى: المانْد (ص١٤٨) ، فى حين الإدريسى يكتبها: المايد.

(٦٢) إلى حيث الموجه: أى تمتد بلادهم حتى مملكة الموجه.

(٦٣) أكثر من الموجه: أى أنهم أكثر عددًا من الموجه.

(٦٤) عُمَّال، ترجمها سوفاجيه: قائمون بالأمور المالية. ويقول المسعودى: وملوكهم تستعمل الخدم والخصيان فى عمالات بلدانهم من المعادن وجبايات الأموال (ص١٤٨)، وانظر الجزء الثانى من هذا الكتاب صفحة ٧٤.

(٦٥) أى تحفظوا عليهم لئلا يسيطرون على البلاد. يقول المسعودى: وإذا دخل رسل ملك الماند مملكة الصين وَكَّلَ ملك الصين بهم، ولم يتركهم ينتشرون فى بلادهم خوفا أن يقفوا على طرقهم وعورات بلادهم، لكبرة الماند فى نفوسهم (ص١٤٨).

(٦٦) عقاب مفردها عقبة: المرقى الصعب من الجبال. يقول المسعودى: وبينهم جبال منيعة وعقبات صعبة (ص١٤٨).

طبول تُضرب معه، وإنما يُفعل ذلك لتُعلم طاعتهم للملك، وبه يعرفون أوقات الليل والنهار ولهم علامات ووزن للساعات(٦٧).

ومعاملتهم بالفلوس، وخزائنهم كخزائن الملوك، وليس لأحد من الملوك فلوس سواهم وهى عين البلاد. ولهم الذهب والفضة واللؤلؤ والديباج(٦٨) والحرير: كل ذلك كثير عندهم غير أن ذلك متاع والفلوس عين. وتُحمل إليهم العاج واللبان وسبائك النحاس والذبل من البحر وهو جلود ظهور السلاحف. وهذا البشان الذى وصفناه وهو الكركدن: يتخذون من قرونه مناطق(٦٩). ودوابهم كثيرة: ليس لهم خيل عربية بل غيرها، ولهم حمير وإبل كثيرة لها سنامان. ولهم الغَضار الجيد ويُعمل منه أقداح فى رقة القوارير يُرى ضوء الماء فيه وهو من غضار(٧٠).

وإذا دخل البحريون من البحر قبض الصينيون متاعهم وصيّروه فى البيوت وضمنوا الدرك إلى ستة أشهر إلى أن يدخل آخر البحريين(٧١). ثم يؤخذ من كل عشرة ثلثة ويسلم الباقى إلى التجار. وما احتاج إليه السلطان أخذه بأغلى الثمن وعجّله(٧٢) ولم يظلم فيه، ومما يأخذون الكافور، المنا بخمسين فكوجا والفكوج ألف فلس، وهذا الكافور إذا لم يأخذه السلطان يساوى نصف الثمن خارجا.

---

(٦٧) لهم علامات ووزن للساعات، أى عندهم أجهزة لقياس الوقت منها الساعات ذات الثقالة التى كان الصينيون يعرفونها، كما كانوا يعرفون الساعة المائية التى عرفها العرب فى زمن تأليف هذا الكتاب (القرن التاسع الميلادى) كما عرفوا المزولة الشمسية.

(٦٨) الديباج والواحدة ديباجة: نوع من الثياب سَداه ولُحْمَتُهُ حرير (فارسى معرب).

(٦٩) مناطق جمع منطقة، أى حزام.

(٧٠) الغَضار: تراب طينى دقيق الحبيبات شديد الاندماج والصلابة، تصنع منه الأوانى الصينية. والغَضار يطلق أيضًا على الإناء المصنوع من هذه المادة. وقد أشار ابن بطوطة فى رحلته مرتين إلى الفخار الصينى وكيفية صنعه (تحفة النظار، صفحات ٤١٤ و٤١٥).

(٧١) معنى ذلك أنه إذا وصل التجار بسفنهم أخذ الصينيون بضائعهم وأودعوها المخازن، وتولى الدرك (أى الشرطة لإدراكها الفارين والمجرمين) تأمينها ضد الحوادث لمدة ستة أشهر إلى أن تصل آخر السفن حتى انتهاء فصل الرياح الموسمية. ويرى المروزى أن ذلك ضمان لإتاحة فرص عادلة أمام توزيع البضائع المستوردة، فى حين يضيف حورانى فى كتابه «العرب والملاحة فى المحيط الهندى» أن الهدف هو تخفيض الأسعار بإغراق السوق بالسلع (ص٢١٧).

(٧٢) عجّله أى فوراً.

عادات أهل الصين

وإذا مات الرجل من أهل الصين لم يدفن إلا فى اليوم الذى مات فى مثله من قابل[٧٣] يجعلونه فى تابوت ويخلّونه فى منازلهم ويجعلون عليه النورة[٧٤] فتمص ماءه ويبقى. والملوك يُجعلون فى الصبر والكافور. ويبكون على موتاهم ثلث سنين ومن لم يبك ضُرب بالخشب، كذلك النساء والرجال ويقولون: « إنه لم يحزنك ميتك؟»، ويُدفنون فى ضريح كضريح العرب ولا يقطعون عنه الطعام ويزعمون أنه يأكل ويشرب، وذلك أنهم يضعون عنده الطعام بالليل فيصبحون ولا يجدون منه شيئًا فيقولون: «قد أكل[٧٥]» ،ولا يزالون فى البكاء والإطعام ما بقى الميت فى منزلهم فيفتقرون على موتاهم فلا يبقى لهم نقد ولا ضيعة إلا أنفقوه عليه. وقد كانوا قبل هذا يدفنون الملك وما ملك من آلة بيته ومن ثياب ومناطق. ومناطقهم تبلغ مالا كثيرا وقد تركوا ذلك الآن، وذلك أنه نُبش بعض موتاهم وأُخذ ما كان معه.

والفقير والغنى من أهل الصين والصغير والكبير يتعلم الخط والكتابة.

واسم ملوكهم على قدر الجاه وكبر المدائن. فما كان من مدينة صغيرة يسمى ملكها طوشى، ومعنى طوشى[٧٦] أقام المدينة. وما كان من مدينة مثل خانفو فاسم مالكها دَيْفو. والخصىّ يدعى طوقام وخصيانهم منهم مسلولون[٧٧]. وقاضى القضاة يقال له لُقشى صامكون شى، ونحو هذا من الأسماء مما لا نضبطه.

---

(٧٣) من قابل، أى فى اليوم المماثل لوفاته من السنة التالية.

(٧٤) النورة: حجر الكلس.

(٧٥) نلاحظ أن هذه المعلومة هى الوحيدة التى ينفى صحتها أبو زيد حسن السيرافى من هذا الجزء المنسوب لسليمان التاجر، وذلك فى بداية الجزء الثانى من هذا الكتاب ، لكننا نلاحظ من ناحية أخرى ارتياب سليمان التاجر نفسه فى هذه المعلومة واستخدامه الفعل «يزعمون».

(٧٦) أقام المدينة: أى محافظ أو حاكم المدينة.

(٧٧) مسلول بمعنى سليل أو من سلالة أو من أبناء الأصول، حيث إن الصينين كانوا يخصون أبناءهم بأنفسهم ليكونوا فى خدمة الإمبراطور. ويرى فيران أن مؤلف الكتاب يعرض مفهوما صينيا يرفع من شأن الخصيان فى مقابل المفهوم الإسلامى الذى يضعهم فى مرتبة العبيد. قارن هذا بما كتبه أبو زيد حسن السيرافى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب حول الخصيان (ص ٧٤).

وليس يملك أحد منهم لأقل من أربعين سنة. يقولون: «قد حنكته التجارب». والملوك الصغار إذا قعد أحدهم يقعد فى مدينته على كرسى فى بهو عظيم وبين يديه كرسى وتُرفع إليه الكتب التى فيها أحكام الناس، ومن وراء الملك رجل قائم يدعى لَنجون: إذا زل الملك فى شىء مما يأمر به وأخطأ رده. وليس يعبئون بالكلام ممن يُرفع إليهم دون أن يكتبه فى كتاب، وقبل أن يدخل صاحب القصة على الملك ينظر فى كتابه رجل قائم بباب الدار ينظر فى كتب الناس، فإن كان فيها خطأ رده. فليس يكتب إلى الملك إلا كاتب يعرف الحكم ويكتب الكاتب فى الكتاب «كتبه فلان بن فلان»، فإن كان فيه خطأ رجع إلى الكاتب اللوم فيُضرب بالخشب. وليس يقعد الملك للحكم حتى يأكل ويشرب لئلا يغلط. وأرزاق كل ملك من بيت مال مدينته.

فأما الملك الأكبر فلا يُرى إلا فى كل عشرة أشهر. يقول: «إذا رآنى الناس استخفّوا بى، والرئاسات لا تقوم إلا بالتجبر، وذلك أن العامة لا تعرف العدل فينبغى أن يُستعمل معهم التجبر لنعظم عندها[٧٨]».

وليس على أرضهم خراج ولكن عليهم جزية على الجماجم الذكور حسبما يرون من الأحوال[٧٩]. وإن كان بها أحد من العرب أو غيرهم أُخذ منه جزية ماله ليُحْرَز ماله[٨٠]. وإذا غلا السعور أخرج السلطان من خزائنه الطعام فباعه بأرخص من سعر السوق فلا يبقى عندهم غلاء. والذى يدخل بيت المال إنما هو من الجزية التى على رؤوسهم، وأظن أن الذى يدخل بيت مال خانفو فى كل يوم خمسون ألف دينار على أنها ليست بأعظم مدائنهم.

ويختص الملك من المعادن بالملح وحشيش يشربونه بالماء الحار ويباع منه فى كل مدينة بمال عظيم ويقال له الساخ. وهو أكثر ورقًا من الرَّطْبَة[٨١] وأطيب قليلاً

(٧٨) ردد مؤلف الجزء الثانى من هذا الكتاب كلامًا مشابهًا ، كما ردده المسعودى بالنسبة للهند (انظر ص٧٤ من هذا الكتاب).

(٧٩) حسبما يرون من الأحوال، أى طبقاً لثروة كل رأس.

(٨٠) ليحرز ماله: حتى يستطيع الاحتفاظ بأمواله.

(٨١) الرطبة: الفِصْفِصَة وهى نبات كالبرسيم، والرطبة كل ما أكل من النبات غضًا طريًا (المعجم الوسيط).

وفيه مرارة، فيغلى الماء ويُذر عليه فهو ينفعهم من كل شىء. وجميع ما يدخل بيت المال الجزية والملح وهذا الحشيش[٨٢].

وفى كل مدينة شىء يدعى الدَّرا وهو جرس على رأس[٨٣] ملك تلك المدينة مربوط بخيط مادّ على ظهر الطريق للعامة كافة، وبين الملك وبينه نحو من فرسخ، فإذا حُرك الخيط الممدود أدّنى حركة تحرك الجرس. فمن كانت له ظلامة حرّك هذا الخيط فيتحرك الجرس منه على رأس الملك فيؤذن له بالدخول حتى يُنهى حاله بنفسه ويشرح ظلامته، وجميع البلاد فيها مثل ذلك.

ومن أراد سفرًا من بعضها إلى بعض أخذ كتابين من الملك ومن الخصىّ، أما كتاب الملك فللطريق باسم الرجل واسم من معه وكم عمره وعمر من معه ومن أية قبيلة هو: وجميع من ببلاد الصين من أهلها ومن العرب وغيرهم لابد لهم أن ينتموا إلى شىء يُعرفون به. وأمّا كتاب الخصىّ فبالمال وما معه من المتاع، وذلك لأن فى طريقهم مسالح[٨٤] ينظرون فى الكتابين، فإذا ورد عليهم الوارد كتبوا «ورد علينا فلان بن فلان الفلانى فى يوم كذا وشهر كذا وسنة كذا ومعه كذا»، لئلا يذهب من مال الرجل ولا من متاعه شىء ضياعا، فمتى ما ذهب منه شىء أو مات عُلم كيف ذهب ورُد عليه أو على ورثته من بعده.

ومعاملاتهم المالية

وأهل الصين يُنصفون فى المعاملات والديون، فإذا كان لرجل على رجل دين كتب عليه كتابًا وكتب الذى عليه الدين أيضًا كتابًا وعلمه[٨٥] بعلامة بين إصبعيه الوسطى والسبابة، ثم جُمع الكتابان فطُويا جميعًا، ثم كُتب على فصلهما[٨٦]،

(٨٢) يرى مصطفى الشهابى فى كتابه «الجغرافيون العرب» أن المقصود بهذا الحشيش هو الشاى، وأن هذه أول إشارة لمؤلف غير صينى عن هذا النبات.

(٨٣) على رأس: أمام.

(٨٤) مسالح مفردها مسلّح أى مخفر للتفتيش.

(٨٥) علّمه بعلامة، أى بصم أو وقع عليه.

(٨٦) فصلهما، أى المكان الذي يلتقيان فيه.

ثم فُرِق فأُعطى الذى عليه الدين كتابه بإقراره. فمتى جحد أحدهما غريمه قيل له «احضر كتابك». فإن زعم الذى عليه الدين أنه لا شىء له أو دفع كتابه بخطه وعلامته وذهب كتاب صاحب الحق قيل للجاحد الذى عليه الحق «احضر كتابًا بأن هذا الحق ليس عليك، فمتى ما بين عليك صاحب الحق الذى جحدته فعليك عشرون خشبة على الظهر وعشرون ألف فكوج فلوس». والفكوج ألف فلوس يكون ذلك قريبًا من ألفى دينار والعشرون الخشبة فيها موته. فليس يكاد أحد ببلاد الصين يُعطى هذا من نفسه مخافة تلف النفس والمال، ولم نر أحدًا أجاب إلى ذلك. وهم يتناصفون بينهم وليس يذهب لأحد حق ولا يتعاملون بشاهد ولا يمين.

وإذا أفلس رجل بمال قوم فحبسه الغرماء بأموالهم عند السلطان أُخذ إقراره، فإن لبث فى السجن شهرًا أخرجه السلطان فنادى عليه «إن هذا فلان بن فلان أفلس بمال فلان بن فلان»، فإن يكون له عند أحد وديعة أو كان له عقار أو رقيق أو ما يحيط بدينه، أُخرج فى كل شهر فضُرب خشبات على إسته لأنه أقام فى الحبس يأكل ويشرب وله مال. فهو يُضرب (سواء) أقر له أحد بمال أو لم يقر له فهو يُضرب على كل حال. يقال (له) ليس لك عمل إلا أخذ حقوق الناس والذهاب بها؟» ويقال له «احتل[87] حقوق هؤلاء القوم». فإن لم يكن له حيلة وصحّ عند السلطان أنه لا شىء له دُعى الغرماء فأُعطوا من بيت مال البغبور - وهو الملك الأعظم، وإنما سمى البغبور ومعناه ابن السماء ونحن نسميه المغبور - ثم ينادى: «من بايع هذا فعليه القتل» فليس يكاد يذهب لأحد مال. وإن عُلم أن له عند أحد مالاً ولم يقر المودع بالمال قُتل بالخشب ولم يُقل لصاحب المال شىء، فيؤخذ المال ويُقسم على الغرماء ولا يبايَع بعد ذلك[88].

ولهم حجر منصوب طوله عشرة أذرع مكتوب فيه نقرًا[89] فى الحجر ذِكْرُ

---

(٨٧) احتل حقوق القوم، أى اغتصبها أو أكلها.

(٨٨) لا يبايع بعد ذلك، أى لا يتعامل أحد مع هذا المدين بعد ذلك.

(٨٩) نقرًا، أى حفرًا.

الأدوية والأدواء: داء كذا دواؤه كذا، فإن كان الرجل فقيراً أُعطى ثمن الدواء من بيت المال.

وليس عليهم خراج فى ضياعهم وإنما يؤخذ من الرؤوس على قدر أموالهم وضياعهم. وإذا وُلد لأحد ذكر كُتب اسمه عند السلطان، فإذا بلغ ثمانى عشرة سنة أُخذت منه الجزية، فإذا بلغ ثمانين سنة لم يؤخذ منه جزية وأُجرى عليه من بيت مال، ويقولون: «أخذنا منه شابًا ونجرى عليه شيخًا».

وفى كل مدينة كُتّاب ومعلم الفقراء ،وأولادهم من بيت المال يأكلون.

ونساؤهم مكشفات الشعور، والرجال يغطون رؤوسهم. وبها قرية يقال لها تايو فى الجبل فيهم قِصَر، وكل قصير ببلاد الصين يُنسب إليها. وأهل الصين أهل جمال وطول وبياض نقى متشرب حمرة. وهم أشد الناس سواد شعور، ونساؤهم يُجرين[٩٠] شعورهن.

دليل البراءة

وأما بلاد الهند فإنه إذا ادعى رجل على آخر دعوى يجب فيها القتل، قيل للمدعى: «أتحامله النار؟[٩١]»،فيقول: «نعم» فتُحْمى حديدة إحماءً شديدًا حتى يظهر النار فيها، ثم يقال له: «ابسط يدك» فتوضع على يده سبع ورقات من ورق شجر لهم، ثم توضع على يده الحديدة فوق الورق، ثم يمشى بها مقبلاً ومدبرًا حتى يلقيها عن يده فيؤتى بكيس من جلود، فتُدْخَل يده فيه ثم يُختم بختم السلطان، فإذا كان بعد ثلاثة أيام أُتِىَ بأرز غير مقشر، فيقال له: « افركه فإن لم يكن فى يده أثر فقد فلج[٩٢] ولا قتل عليه، ويُغرم الذى ادعى عليه منّا من

(٩٠) يجرين شعورهن: أى يتركنها منسابة.

(٩١) أتحامله النار؟ أى هل توافق على أن تجعل النار حكمًا بينكما؟ وتذكرنا هذه العادة الشعبية بما يعرف فى مناطقنا البدوية «بالبشعة»، وهى طاسة محماة بالنار على المتهم أن يلحسها بلسانه، فإن لم يتضرر اتضحت براءته.

(٩٢) فلج: أى ظفر وغلب خصمه (المعجم الوسيط).

ذهب يقبضه السلطان لنفسه. وربما أغلوا الماء فى قدر حديد أو نحاس حتى لا يقدر أحد أن يدنو منه، ثم يُطرح فيه خاتم حديد، ويقال: «ادخل يدك فتناول الخاتم». وقد رأيت من أدخل يده وأخرجها صحيحة، ويغرم المدعى أيضًا منّا من ذهب.

لا تغتروا بالحياة

وإذا مات الملك ببلاد سرنديب صُيّر على عجلة قريبًا من الأرض وعُلق فى مؤخرها مستلقيا على قفاه يجر شعر رأسه التراب عن الأرض وامرأة بيدها مكنسة تحث التراب على رأسه وتنادى: «أيها الناس هذا ملككم بالأمس قد ملككم وكان أمره نافذًا فيكم، وقد صار إلى ما ترون من ترك الدنيا وأخذ روحه ملك الموت، فلا تغتروا بالحياة بعده»، وكلاما نحو هذا ثلاثة أيام ثم يُهيأ له الصندل والكافور والزعفران فيُحرق به، ثم يُرمى برماده فى الريح. والهند كلهم يحرقون موتاهم بالنار[٩٣]. وسرنديب آخر الجزائر وهى من بلاد الهند. وربما أُحرق الملك فتدخل نساؤه النار فيحترقن معه وإن شئن لم يفعلن[٩٤].

نسّاك الهند

وببلاد الهند من يُنسب إلى السياحة فى الغياض والجبال وقلّ ما يعاشر الناس، يأكل أحيانا الحشيش وثمر الغياض ويجعل فى إحليله حلقة حديد لئلا يأتى النساء. ومنهم العريان، ومنهم من ينصب نفسه للشمس مستقبلها عريانًا إلا أن عليه شيئا من جلود النمور. فقد رأيت رجلا منهم كما وصفت، ثم انصرفت وعدت بعد ست عشرة سنة فرأيته على تلك الحال، فتعجبت كيف لم تسل عينه من حر الشمس.

---

(٩٣) يردد المسعودى فى مروجة نفس هذا الوصف (ص٧٣).

(٩٤) ردد المسعودى فى مروجه كلامًا مشابهاً (ص١٥٣)، كما كان ابن بطوطة شاهد عيان لحرق بعض الزوجات أنفسهن وأنه لم يتحمل مواصلة ما رأى فانصرف، كما أوضح أن الأمر وإن كان متروكًا لاختيار الزوجة إلا أن هناك نوعا من ضغط العرف يجعله أقرب إلى الإجبار (تحفة النظار، صفحات ٢٧٣ - ٢٧٥).

وراثة المُلك والصناعات

وأهل بيت المملكة فى كل مملكة أهل بيت واحد لا يخرج عنهم الملك ولهم ولاة عهود[٩٥] ،وكذلك أهل الكتابة والطب أهل بيوتات لا تكون تلك الصناعة إلا فيهم.

وليس تنقاد ملوك الهند لملك واحد بل كل واحد ملك ببلاده. وبلهرا ملك الملوك بالهند. فأما الصين فليس لهم ولاة عهود.

مقارنة بين أهل الصين والهند

وأما الصين فأهل ملاه، وأهل الهند يعيبون الملاهى ولا يتخذونها ولا يشربون الشراب ولا يأكلون الخَل لأنه من الشراب، وليس ذلك دين ولكن أنفه، ويقولون: «أى ملك شرب الشراب فليس بملك»، وذلك أن حولهم ملوكا يقاتلونهم، فيقولون: «كيف يدبر أمر ملكه من هو سكران؟»[٩٦].

وربما اقتتلوا على المُلك، وذلك قليل: لم أر أحدًا غلب أحدًا على مملكته إلا قوم تتلو بلاد الفلفل[٩٧]. وإذا غلب ملك على مملكة ولّى عليها رجلاً من أهل بيت الملك المغلوب ويكون من تحت يده: لا يرضى أهل تلك المملكة إلا بذلك. فأما بلاد الصين فربما جار الملك الذى من تحت يد الملك الأكبر فيذبحونه ويأكلونه، وكل من قُتل بالسيف أكل الصينيون لحمه.

وأهل الهند والصين إذا أرادوا التزويج تهانئوا بينهم، ثم تهادوا، ثم يُشهرون التزويج بالصنوج والطبول. وهديتهم من المال على قدر الإمكان. وإذا أحضر الرجل منهم امرأة فبغت فعليها وعلى الباغى بها القتل فى جميع بلاد الهند. وإن

---

(٩٥) ولاة عهود: جمع ولى عهد أى ورثة مُلك.

(٩٦) يقول المسعودى فى مروجه: والهند تمنع من شرب الشراب، ويعنّفون شاربه لا على طريق التدين لكن تنزهاً عن أن يوردوا عقولهم ما يغشيها ويزيلها عما وضعت له فيهم. وإذا صح عندهم عن ملك من ملوكهم شربه استحق الخلع عن مُلكه، إذ كان لا يتأتى له التدبير والسياسة مع الاختلاط (ص٧٣).

(٩٧) بلاد الفلفل: الجزء الجنوبى من ساحل الهند الغربى: ماليبار وترافانكور.

زنى رجل بامرأة اغتصبها نفسَها قُتل الرجل وحده، فإن فجر بامرأة على رضى منها قُتلا جميعًا.

والسرق فى جميع بلاد الصين والهند في القليل منه والكثير القتل. فأما الهند، إذا سرق السارق فلسًا فما فوقه أُخذت خشبة طويلة فيُحدد طرفها ثم يقعد عليها على إسته حتى تخرج من حلقه.

وأهل الصين يلوطون بغلمان قد أقيموا لذلك بمنزلة زوانى البددة.

وحيطان أهل الصين الخشب، وبناء أهل الهند حجارة وجص وآجر وطين، وكذلك ربما كان بالصين أيضًا.

وليس الصين ولا الهند بأصحاب فُرش، ويتزوج الرجل من الصين والهند ما شاء من النساء[٩٨].

وطعام الهند الأرز، وطعام الصين الحنطة والأرز. وأهل الهند لا يأكلون الحنطة.

ولا يختتن الهند ولا الصين.

وأهل الصين يعبدون الأصنام ويصلُّون لها ويتضرعون إليها ولهم كتب دين.

والهند يطوّلون لحاهم: ربما رأيت لحية أحدهم ثلثة أذرع، ولا يأخذون شواربهم. وأكثر أهل الصين لا لحا[٩٩] لهم خلقةً لأكثرهم. وأهل الهند إذا مات لأحدهم ميت حلق رأسه ولحيته.

والهند إذا حبسوا رجلا أو لازموه[١٠٠] منعوه الطعام والشراب سبعة أيام وهم يتلازمون.

ولأهل الصين قضاة يحكمون بينهم دون العمال[١٠١] وكذلك أهل الهند.

---

(٩٨) أى أن الصينيين والهنود لا يعترفون بعقود الزواج، ويستطيع الرجل منهم أن يتزوج من شاء من النساء حتى ولو كانت على ذمة زوج آخر.

(٩٩) لحا: صحتها لِحى ولُحى.

(١٠٠) لازموه: أى حجزوه، أو حددوا إقامته، أو ألزموه مكانًا.

(١٠١) دون العمال: أى دون تدخل الحكام، أى أن القضاء مستقل.

والنمور والذئاب ببلاد الصين جميعًا، فأما الأُسْد فليست بكلا الولايتين.

ويُقتل قاطع الطريق.

وأهل الصين والهند يزعمون أن البددة[١٠٢] تكلمهم وإنما يكلمهم عبادهم.

والصين والهند يقتلون ما يريدون أكله ولا يذبحونه، فيضربون هامته حتى يموت. ولا يغتسل الهند ولا الصين من جنابة[١٠٣] .. وأهل الصين لا يستنجون إلا بالقراطيس.[١٠٤] والهند يغتسلون كل يوم قبل الغذاء ثم يأكلون، والهند لا يأتون النساء فى الحيض ويخرجونهن عن منازلهم تقززًا منهن، والصين يأتونهن فى الحيض ولا يخرجونهن. وأهل الهند يستاكون ولا يأكل أحدهم حتى يستاك ويغتسل، وليس يفعل ذلك أهل الصين[١٠٥].

وبلاد الهند أوسع من بلاد الصين وهى أضعافها، وعدد ملوكهم أكثر، وبلاد الصين أعمر. وليس للصين ولا للهند نخل ولهم سائر الشجر وثمر ليس عندنا. والهند لاعنب لهم، وهو بالصين قليل، وسائر الفواكه عندهم كثيرة والرمان بالهند أكثر.

وليس لأهل الصين علْم وإنما أصل ديانتهم من الهند، وهم يزعمون أن الهند وضعوا لهم البددة وأنهم أهل الدين، وأهل كلا البلدين يرجعون إلى التناسخ، ويختلفون فى فروع دينهم. والطب بالهند والفلسفة، ولأهل الصين أيضًا طب، وأكثر طبهم الكى، ولهم علم بالنجوم وذلك بالهند أكثر، ولا أعلم أحدًا من الفريقين مسلما ولا يتكلم بالعربية. وللهند خيل قليلة وهى للصين أكثر وليس

---

(١٠٢) البُدّ: الصنم أو بيته، جمعه أبداد وبدده (المعجم الوسيط).

(١٠٣) أى بعد الاتصال الجنسى.

(١٠٤) أى لا ينظفون أنفسهم بعد الإخراج إلا بالورق.

(١٠٥) لم يذكر سليمان التاجر ولا أبو زيد حسن السيرافى إلا استخدام الهنود المسواك فى تنظيف أسنانهم، مع أن غيرهما من الرحالة أشار إلى استخدام طرق أخرى، مثل: التانبول الذى ذكره ـ على سبيل المثال ـ المسعودى الذى كان معاصراً لأبى زيد حسن السيرافى (مروج الذهب، ص١٧٩)، وابن بطوطة (تحفة النظار، صفحات ١٠٦ ـ ١٠٨).

للصين فيلة ولا يتركونها فى بلادهم تشاؤمًا بها. وجنود ملوك الهند كثيرة ولا يُرزقون[١٠٦]، وإنما يدعوهم الملك إلى الجهاد فيخرجون ينفقون من أموالهم ليس على الملك من ذلك شيء. فأما الصين فعطاؤهم كعطاء العرب[١٠٧] وبلاد الصين أنزه وأحسن، وأكثر الهند لا مدائن لها. وأهل الصين فى كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة. وبلاد الصين أصح وأقل أمراضًا وأطيب هواء: لا يكاد يُرى بها أعمى ولا أعور ولا من به عاهة وهكذا[١٠٨] كثير ببلاد الهند. وأنهار البلدين جميعًا عظام: فيها ماهو أعظم من أنهارنا، والأمطار بالبلدين جميعًا كثيرة. وفى بلاد الهند مفاوز كثيرة والصين كلها عمارة. وأهل الصين أجمل من أهل الهند وأشبه بالعرب فى اللباس والدواب، وهم فى هيئتهم وفى مواكبهم شبيه بالعرب: يلبسون الأقبية[١٠٩] والمناطق وأهل الهند يلبسون فوطتين ويتحلون بأسورة الذهب والجوهر الرجال والنساء.

ووراء بلاد الصين من الأرض التُغُزْغُز وهم من الترك وخاقان تبت[١١٠]: هذا مما يلى بلاد الترك فأما ما يلى البحر فجزائر السيلا[١١١] ،وهم بيض يهادون

(١٠٦) لا يرزقون: أى لا يأخذون أجرًا عن التحاقهم بالجيش.

(١٠٧) أى أن الصين تكافئ جنودها كما يفعل العرب.

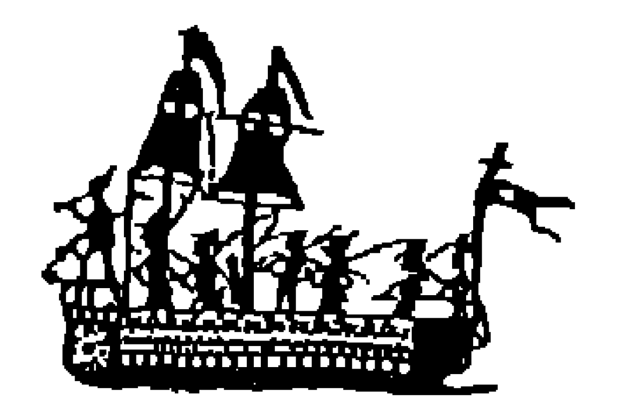
(١٠٨) هكذا هنا بمعنى: وهو.

(١٠٩) أقبية مفردها قباء: ثوب يُلبس فوق الثياب ويُتمنطق عليه.

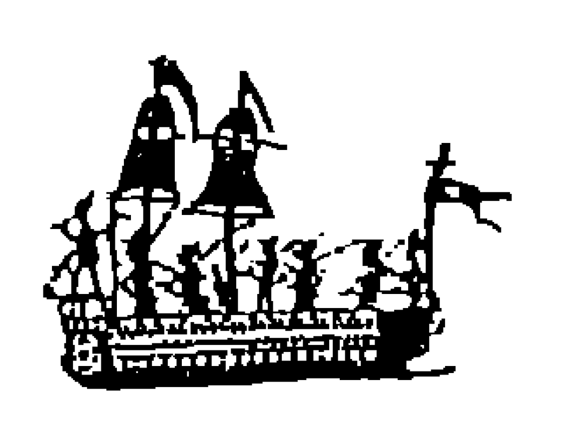
(١١٠) يرى جابربيل فيران أن لقب خاقان هنا أطلق خطأ على ملك التبت، وقد أطلق المسعودى فى مروجه نفس اللقب على ملك التبت الذى أرسل خطابًا جاء فى أوله: من خاقان ملك تبت ومشارق الأرض المتاخمة للصين والهند.. (ص٢٣٠) كما يذكر المسعودى في موضع آخر أن الخاقان لقب لملك الخزر، لكنه أقل رتبة من الملك الذى بيده السلطة الفعلية. ويُفهم مما ذكره المسعودى أن وظيفة هذا الخاقان أن يكون كبش فداء فى حالة تعرض البلاد لكارثة بدلاً من أن يتحملها الحاكم الفعلى فربما سلمه إليهم.. إلى الخاصة والعامة الذين يطالبون بقتله لأنهم تطيروا منه.. فقتلوه، وربما تولى هو قتله، وربما رق له فدافع عنه، لأن قتله بلا جرم استحقه ولا ذنب أتاه (صفحات ١٥٤ ـ ١٥٥). كما يذكر أن الخاقان لقب من ألقاب ملوك الترك (ص١٦٠).

(١١١) السيلا هى كوريا حاليًا، ويرجع هذا الاسم إلى الأسرة التى حكمت شبه الجزيرة كلها بين عامى ٦٦٩ و٩١٨م بعد أن كانت مقسمة إلى ثلاث ممالك. أما رينو فيعتقد أنها اليابان طبقًا لما ذكره المسعودى «أنها بعد بلاد الصين مما يلى البحر» (المروج ، ص١٣٤).

صاحب الصين، ويزعمون أنهم إن لم يهادوه لم تُمطرهم السماء. ولم يبْلغها أحد من أصحابنا فيحكى عنهم. ولهم بزاة بيض(١١٢).



(١١٢) يصف المسعودى هذا النوع من البزاة البيض، فيقول: وهذا النوع من البزاة أسرع الضوارى إجابة، وأقلها معاشرة إلا أن فى هذا النوع من البزاة شيئًا من الضعف لأن الصائد يصطادها من هذه الجزائر فيغذيها بالسمك، فإذا اختلف عليها الغذاء عرض لها الضعف. وقد قال الجمهور من أهل المعرفة بالضوارى وأنواع الجوارح: «إن البازى إذا كان إلى البياض فى اللون فإنه أسرع البزاة وأحسنها، وأنبلها أجسامًا وأجرؤها قلوبًا، وأسهلها رياضة، وأنه أقوى جميع البزاة على السمو فى الجو، وأذهبها الصعداء» (صفحات ١٥٩ ـ ١٦٠).



□ غلاف الترجمة الفرنسية لجابرييل فيران عام ١٩٢٢م

RELATION
DES VOYAGES

FAITS

PAR LES ARABES ET LES PERSANS

DANS L'INDE ET À LA CHINE

DANS LE IX^E SIÈCLE DE L'ÈRE CHRÉTIENNE

TEXTE ARABE IMPRIMÉ EN 1811

PAR LES SOINS DE FEU LANGLÈS

PUBLIÉ

AVEC DES CORRECTIONS ET ADDITIONS
ET ACCOMPAGNÉ D'UNE TRADUCTION FRANÇAISE
ET D'ÉCLAIRCISSEMENTS

PAR M. REINAUD

MEMBRE DE L'INSTITUT

TOME II

NOTES DE LA TRADUCTION
ET TEXTE ARABE

PARIS

IMPRIMÉ PAR AUTORISATION DU ROI

A L'IMPRIMERIE ROYALE

1845



□ الكتاب الثانى

من أخبار الصين والهند
حوادث عام ٢٦٤هـ فى خانفوا

قال أبو زيد الحسن السيرافى: إننى نظرت فى هذا الكتاب.. يعنى الكتاب الأول الذى أُمرت بتأمله وإثبات ما وقفت عليه من أمر البحر وملوكه وأحوالهم وما عرفته من أحاديثهم مما لم يدخل فيه، فوجدت تاريخ الكتاب فى سنة سبع وثلاثين ومائتين، وأمور البحر فى ذلك الوقت مستقيمة لكثرة اختلاف التجار إليها من العراق، ووجدت جميع ما حُكى فى الكتاب على سبيل حق وصدق إلا ما ذُكر فيه من الطعام الذى يقدّمه أهل الصين إلى الموتى منهم، وأنه إذا وُضع بالليل عند الميت أصبحوا فلم يوجد، وادّعوا أنه يأكله، فقد كان بلغنا هذا حتى ورد علينا من ناحيتهم من وثقنا بخبره فسألناه عن ذلك فأنكره، وقال: هى دعوى لا أصل لها كدعوى أهل الأوثان أنها تكلمهم.

وقد تغير بعد هذا التاريخ أمر الصين خاصة وحدثت فيه حوادث انقطع لها الجهاز[١] إليهم وخرب البلد وزالت رسومه وتفرق أمره، وأنا أشرح ما وقفت عليه من السبب فى ذلك إن شاء الله. السبب فى تغير أمر الصين عما كان عليه من الأحكام والعدل وانقطاع الجهاز إليه من سيراف أن نابغًا نبغ فيهم من غير بيت الملك يعرف ببانشوا[٢]، وكان مبتدأ أمره الشطارة والفتوة وحمل السلاح والعبث واجتماع السفهاء إليه، حتى اشتدت شوكته وكثر عدده واستحكم طمعه،

---

(١) انقطع لها الجهاز، أى انقطع سفر السفن.

(٢) أورد المسعودى فى مروجه قصة هذا التمرد مع بعض التفاصيل المختلفة، كما ورد اسم زعيم التمرد: يانشو وليس بانشوا، وربما يرجع الاختلاف إلى النساخ (مروج الذهب صفحات ١١٨ ـ ١١٩).

فقصد خانفوا[٣] من بين مدن الصين، وهى المدينة التى يقصدها تجار العرب وبينها وبين البحر مسيرة أيام يسيرة، وهى على وادٍ عظيم وماء عذب فامتنع أهلها عليه فحاصرهم مدة طويلة، وذلك فى سنة أربع وستين ومائتين إلى أن ظفر بها فوضع السيف فى أهلها، فذكر أهل الخبرة بأمورهم أنه قتل من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس سوى من قتل من أهل الصين مائة وعشرون[٤] ألف رجل كانوا تبوؤا[٥] بهذه المدينة فصاروا بها تجارًا، وإنما عُرف مقدار عدد هذه الملل الأربع لتحصيل أهل الصين بعددهم[٦] وقطع ما كان فيه من شجر التوت وسآير الأشجار، وذكرنا شجر التوت خصوصًا لإعداد أهل الصين ورقه لدود القز حتى يلف الدود[٧] ،فصار سببًا لانقطاع الحرير خاصة عن بلاد العرب، ثم قصد بعد تخريب خانفوا إلى بلد بلد فأخربه وعجز ملك الصين عنه إلى أن قارب مدينة الملك وتُعرف بخُمدان[٨] فهرب الملك منه إلى مدينة مدو متاخمة لبلاد التبت فأقام بها. ودامت أيام هذا النابغ وعظم شأنه وكان قصده ووكده[٩] خراب المدن وقتل أهلها إذ لم يكن من بيت ملك ومن يطمع فى اتساق الأمر له، فبلغ من ذلك مبلغًا فسد به أمر الصين إلى وقتنا هذا. ولم تزل تلك حال هذا النابغ إلى أن كتب ملك الصين إلى ملك التغزغز من بلاد الترك وبينهم محاورة ومصاهرة، ووجه إليه رسلا تسأله كشف هذا الرجل عنه، فأنفذ ملك التغزغز ابنًا له إلى هذا النابغ فى عدد كثير وجموع وافرة فأزاله بعد حروب متصلة ووقايع عظيمة،

---

(٣) خانفوا: الاسم العربى الذى أطلق فى القرنين الثالث والرابع الهجرى (التاسع والعاشر الميلادى) على أهم ميناء بحرى فى الصين يصلها بالشعوب الأسيوية الغربية. وترى دائرة المعارف الإسلامية أن هذه المدينة هى كانتون حاليًا. وكانت مركزًا تجاريًا هامًا، وبينها وبين العاصمة خُمدان طريق يقطعه المسافر فى شهرين. ويلاحظ أنها تُكتب بالألف وبغير الألف، بينما المسعودى يكتبها خانقوا أى بالقاف.

(٤) صحتها: وعشرين.

(٥) تبوؤا: أى أقاموا.

(٦) أى أنهم كانوا يفرضون ضريبة على كل رأس من الأجانب.

(٧) حتى يلف الدود: أى حتى يتشرنق.

(٨) خُمدان: يقول رينو إن الصينيين كانوا يسمونها تشانج نجان Tchang - ngan ،واسمها الآن سى نجان فو Si - ngan - fou ،وتقع على أحد روافد النهر الأصفر، على بعد مائتى فرسخ من البحر، وهى الآن عاصمة إقليم تشين ـ سى Chen si (الفرسخ أربعة كيلو مترات).

(٩) وكد الأمر: مارسه وقصده (المعجم الوسيط).

فزعم قوم أنه قُتل وزعم آخرون أنه مات، وعاد ملك الصين إلى بلده المعروف بخُمدان وقد أخربه عليه وعلى سبيل ضعف فى نفسه ونقص فى أمواله وهلاك قوّاده وصناديد رجاله وكفاته[١٠] وغلب مع ذلك على كل ناحية متغلب منع من أموالها وتمسك بما فى يده منها، فدعت ملك الصين الضرورة لقصور يده إلى قبول العفو منهم بإظهار الطاعة والدعاء له دون السمع والطاعة فى الأموال وما كان من الملوك ينُفذ فيه[١١] فصارت بلاد الصين على سبيل ما جرت عليه أحوال الأكاسرة عند قتل الإسكندر لدارا الكبير وقسمته أرض فارس على ملوك الطوايف، وصار بعضهم يعضد بعضًا للمغالبة بغير إذن الملك ولا أمره، فإذا أناخ القوى منهم على الضعيف تغلب على بلاده واجتاح ما فيه وأكل ناسه كلهم، وذلك مباح لهم فى شريعتهم لأنهم يتبايعون لحوم الناس فى أسواقهم،[١٢] وامتدت أيديهم مع ذلك إلى ظلم من قصدهم من التجار[١٣]، ولما حدث هذا فيهم التام[١٤] إليه ظهور الظلم والتعدى فى نواخذة[١٥] العرب وأرباب المراكب فألزموا التجار مالا يجب عليهم وغلبوهم على أموالهم، واستجازوا مالم يجر

(١٠) كفاته: أى الأكْفاء منهم.

(١١) أى وما للملوك من سلطات متعارف عليها.

(١٢) يرجح رينو أن هذا قد حدث أثناء التمرد، وأن الصواب جانَب مؤلف الكتاب فى تعميم ما سمعه من راوية. لكننا نلاحظ أن مؤلف الجزء الأول من هذا الكتاب - أى قبل هذا التمرد - يقول: «فأما بلاد الصين فربما جارَ الملك - بمعنى الحاكم هنا - الذى من تحت يد الملك الأكبر فيذبحونه ويأكلونه، وكل من قُتل بالسيف أكل الصينيون لحمه» (ص٦٠). كما يؤكد ذلك البيرونى حين يقول: إن الصينيين يأكلون لحم المحكوم عليهم بالإعدام بعد طهيه، أما من يموت ميتة طبيعية فلا يؤكل. كما أن ماركو بولو (٦٥١ - ٧٢٣هـ/ ١٢٥٤ - ١٣٢٤م) يذكر أنه شاهد فى رحلته قبيلة من قبائل التتار تمارس نفس هذه العادة. بينما يرى أندريه ميكل أن هذه مبالغة من قبل أبى زيد السيرافى فى معطيات ما يسميه المصنف الأصلى (أى الجزء الأول من هذا الكتاب)، فإذا تعاطى الضيوف أكل اللحوم البشرية فى ظروف ترتبط بالسحر السياسى أصبح هذا الحدث خاصة من خصائص بلادهم، التى تُعتبر هذه الممارسة فيها عقابا، كما فى حالة الزنا مثلاً، وتحول إلى نص نافذ من أحكام قانون العقوبات (جغرافية الإسلام البشرية، ترجمة إبراهيم خورى، وزارة الثقافة السورية، دمشق، جـ١، ص٢١٨).

(١٣) أى التجار الأجانب.

(١٤) ترجمها فيران بمعنى: طفح، بلغ الذروة. وربما كان معناها: اجتمع.

(١٥) نواخذة والمفرد ناخذاه، ومعناها هنا - أى فى المحيط الهندى - ربان السفينة، أما إذا كان الحديث عن الملاحة فى البحر المتوسط، فيكون معناها: بحار أو نوتى المأخوذة عن اليونانية.

الرسم به قديمًا فى شىء من أفعالهم، فنزع الله جل ذكره البركات منهم جميعًا، ومنع البحر جانبه ووقع الفنا بالمقدار الجارى من المدبر تبارك اسمه فى الربانية والادّلآء بسيراف وعمان.

جزاء الزانى والزانية:

وذُكر فى الكتاب طرف من سنن أهل الصين ولم يُذكر غيره، وهو سبيل المحصن والمحصنة عندهم إذا زنيا القتل وكذلك اللص والقاتل، وسبيلهم فى القتل أن تشد يدا من يريدون قتله شدًا وثيقًا، ثم تطرح يداه فى رأسه حتى تصيرا على عنقه، ثم تدخل رجله اليمنى فيما ينفذ من يده اليمنى ورجله اليسرى فيما ينفذ من يده اليسرى فتصير قدماه جميعًا من ورايه ويتقبض ويبقى كالكرة لا حيلة له فى نفسه ويستغنى عن ممسك يمسكه، وعند ذلك تزول عنقه عن مركَّبها[16] وتتزايل خرزات[17] ظهره عن بطنها، وتختلف ركاه، ويتداخل بعضه فى بعض، وتضيق نفسه، ويصير فى حال لو ترك على ما هو به بعض ساعة لتلف، فإذا بلغ منه ضرب بخشبة لهم معروفة على مقاتله ضربات معروفة لا تتجاوز[18] فليس دون نفسه شىء، ثم يدفع إلى من يأكله[19] . وفيهم نساء لا يردن الإحصان ويرغبن فى الزنا، وسبيل هذه أن تحضر مجلس صاحب الشرط فتذكر زهدها فى الإحصان ورغبتها فى الدخول فى جملة الزوانى وتسال حملها على الرسم[20] فى مثلها، ومن رسمهم فيمن أراد ذلك من النساء أن تكتب نسبها وحليتها[21] وموضع منزلها، وتثبت فى ديوان الزوانى، وتجعل فى عنقها

(١٦) المركَّب: الأصل والمنبت: والمقصود هنا كتفيه.

(١٧) خرزة، وجمعها خرز وخرزات، أى فقرات.

(١٨) لا تتجاوز، أى محدودة العدد.

(١٩) يرى فيران فى مقدمة ترجمته الفرنسية أن هذا كلام غير دقيق يصدر عن رواة يختلفون عن أهل البلاد لغة وعقيدة وعرفا، وأنهم أضفوا خيالهم فى هذه المعلومة كما أضفوها فيما ورد من قصص وعجائب (راجع مناقشة ذلك فى الهامش ص ٧١).

(٢٠) أى وتعلن الالتزام المفروض على أمثالها.

(٢١) حليتها، أى أوصافها المميزة: صفتها وخِلقها وصورتها (المعجم الوسيط).

خيطًا فيه خاتم من نحاس مطبوع بخاتم الملك، ويدفع إليها منشور يذكر فيه دخولها فى جملة الزوانى وأن عليها لبيت المال فى كل سنة كذى وكذى فلسا، وأن من تزوجها فعليه القتل، فتؤدّى فى كل سنة ما عليها ويزول الإنكار عنها.

فهذه الطبقة من النساء يخرجن بالعشيات عليهن ألوان الثياب من غير استتار، فيصرن إلى من طرأ إلى تلك البلاد من الغرباء من أهل الفسق والفساد وأهل الصين، فيقمن عندهم وينصرفن بالغدوات، ونحن نحمد الله على ما طهرنا به من هذه الفتن.

المعاملات المالية:

وأما تعاملهم بالفلوس(٢٢) فالسبب فيه إنكارهم على المتعاملين بالدنانير والدراهم قولهم: إن لصًا لو دخل منزل رجل من العرب المتعاملين بالدنانير والدراهم لتهيأ له حمل عشرة ألف دينار ومثلها من الورق على عنقه فيكون فيها عطب صاحب المال، وأن لصًا لو دخل إلى رجل منهم لم يحمل أكثر من عشرة ألف فلس، وإنما ذلك عشرة مثاقيل ذهب، وهذه الفلوس معمولة من نحاس وأخلاط من غيره معجونة به، والفلس منها فى قدر الدرهم البغلى وفى وسطه ثقب واسع ليغرز الخيط فيه، وقيمة كل ألف فلس منها مثقال من ذهب، وينظم الخيط منها ألف فلس على رأس كل ماية عقدة، فإذا ابتاع المبتاع ضياعا أو متاعا أو بقلا فما فوقه دفع من هذه الفلوس على قدر الثمن، وهى موجودة بسيراف وعليها نقش بكتابتهم.

المساكن فى الصين:

وأما الحريق ببلاد الصين والبناء وما ذكر فيه فالبلد مبنى على ما قيل من خشب ومن قنا مشبّك على مثال الشقاق القصب(٢٤) عندنا، ويليّط بالطين وبعلاج لهم يتخذونه من حب الشهدانج (٢٥) فيصير فى بياض اللبن تدهن به

(٢٢) الفلس عملة نحاسية، والدرهم عملة فضية، أما الدينار فعملة ذهبية.

(٢٤) الشقاق القصب، أى البوص المشقوق.

(٢٥) حب الشهدانج، أى بذور شجر القنب.

الجدر فيشرق إشراقًا عجيبًا. وليس لبيوتهم عتب، لأن أملاكهم وذخايرهم وما تحويه أيديهم فى صناديق مركبة على عجل تدور بها، فإذا وقع الحريق دفعت تلك الصناديق بما فيها فلم يمنعها[٢٦] العتب من سرعة النفوذ.

مكانة الخدم فى الصين:

وأما أمر الخدم فذُكر مجملا[٢٧] ،وإنما هم ولاة الخراج وأبواب المال فمنهم من قد سُبِى من الأطراف فخُصى، ومنهم من يختصيه والده من أهل الصين ويهديه إلى الملك تقربا به إليه[٢٨] ،فأمور الملك فى خاصّته وخزاينه، ومن يتوجه إلى مدينة خانفوا التى يقصد إليها تجار العرب هم الخدم. ومن سننهم فى ركوب هؤلاء الخدم وملوك ساير المدن إذا ركبوا أن يتقدمهم رجال بخشب تشبه النواقيس يضربون بها فيسمع من بعد فلا يقف أحد من الرعيّة فى شىء من ذلك الطريق الذى يريد الخادم أو الملك أن يمر فيه، ومن كان على باب دار دخلها وأغلق الباب دونه حتى يكون اجتياز الخادم أو الملك المملك على تلك المدينة وليس فى طريقه أحد من العامة ترهيبًا وتجبرًا، ولئلا يكثر نظر العامة إليهم، ولا يمتد لسان أحد إلى الكلام معهم[٢٩] . ولباس خدمهم ووجوه قوّادهم فاخر الحرير الذى لا يُحمل مثله إلى بلاد العرب عندهم ومبالغتهم فى أثمانه، وذكر رجل من وجوه التجار ومن لا يشك فى خبره أنه صار إلى خصى كان الملك أنفذه إلى مدينة خانفوا لتخير ما يحتاج إليه من الأمتعة الواردة من بلاد العرب فرأى على صدره خالا يشفّ من تحت ثياب حرير كانت عليه، فقدّر أنه قد ضاعف بين ثوبين منها، فلما ألحّ فى النظر، قال له الخصى: أراك تديم النظر

---

(٢٦) فلم يمنعها: أى لا يعوقها.

(٢٧) يقصد فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٢٨) قارن هذا بما ذكره المسعودى فى مروجه: ذلك أن الصين يستعملون الخصيان من الخدم فى الخراج وغيره من العمالات والمهمات، وفيهم من يخصى ولده طلبًا للرياسة واعتقاد النعمة. (ص١٢٠) راجع ما جاء بهذا الشأن فى الجزء الأول من هذا الكتاب (ص٥٤).

(٢٩) قارن هذا بما قاله المسعودى أيضًا فى مروجه، لكن بالنسبة للهند: ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلا فى كل برهة من الزمان معلومة، ويكون ظهورها للنظر فى أمور الرعية، لأن نظر العوام عندها إلى ملوكهم خرقًا لهيبتها، واستخفافًا بحقها (ص٧٣)، كما ردده مؤلف الجزء الأول من هذا الكتاب (ص٥٥).

إلى صدرى فلم ذلك؟.. فقال له الرجل عجبت من خال يشفّ من تحت هذه الثياب، فضحك الخصى، ثم طرح كُمَّ قميصه إلى الرجل، وقال له: اعدد ما علىّ منها فوجدها خمسة أقبية بعضها فوق بعض والخال يشفّ من تحتها،[٣٠] والذى هذه صفته من الحرير خام غير مقصور[٣١] ،والذى يلبسه ملوكهم أرفع من هذا وأعجب.

مهارة الصانع الصيني:

وأهل الصين من أحذق خَلْق الله كفّاً[٣٢] بنقش وصناعة وكلّ عمل لا يقدمهم فيه أحد من ساير الأمم، والرجل منهم يصنع بيده ما يقدّر أن غيره يعجز عنه، فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع، فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك إلى سنة، فإن لم يُخرج أحد فيه عيبًا جازاه وأدخله فى جملة صنّاعه، وإن أخرج فيه عيبًا أطّرحه ولم يجازه، وإن رجلاً منهم صور سنبلة عليها عصفور فى ثوب حرير لا يشك الناظر إليها أنها سنبلة، وأن عصفوراً عليها فبقيت مدّة وأنه اجتاز بها رجل أحدب فعابها فأُدخل إلى ملك ذلك البلد وحضر صانعها، فسئل الأحدب عن العيب، فقال المتعارف عند الناس جميعا أنه لا يقع عصفور على سنبلة إلا أمالها، وأن هذا المصور صوّر السنبلة قائمة لا ميل لها وأثبت العصفور فوقها منتصبًا فاخطأ، فصُدِق ولم يثب الملك صانعها بشىء[٣٣] وقصدهم فى هذا وشبهه رياضة من يعمل هذه الأشياء ليضطرهم ذلك إلى شدة الاحتراز وإعمال الفكر فيما يصنع كل منهم بيده.

مقابلة بين رجل من قريش وملك الصين:

وقد كان بالبصرة رجل من قريش يُعرف بابن وهب من ولد هبّار بن الأسود خرج منها عند خرابها[٣٤] فوقع إلى سيراف وكان فيها مركب يريد بلاد الصين،

(٣٠) قارن هذا بما ورد فى الجزء الأول من هذا الكتاب عن الثياب فى بلاد ملك الجزر التى ليس لأحد مثلها: يدخل الثوب منها فى حلقة خاتم دقة وحسنا وهو من قطن (ص ٥٠).

(٣١) قصّر الثوب، أى دقه وبيضه.

(٣٢) أى فى الأعمال اليدوية.

(٣٣) أورد المسعودى هذه القصة فى مروج الذهب (ص١٢٥). انظر الملاحق.

فنزعت به همّته بالمقدار الجارى، على أن ركب فى ذلك المركب إلى بلاد الصين، ثم نزعت به همته إلى قصد ملكها الكبير فسار إلى خُمْدان فى مقدار شهرين من المدينة المعروفة بخانفو، وأقام بباب الملك مدّة طويلة يرفع الرقاع ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب، فأمر الملك بعد هذه المدّة بإنزاله فى بعض المساكن وإزاحة علّته فيما يحتاج إليه. وكتب الملك إلى الوالى المستخلف المقيم بخانفو يأمره بالبحث ومساءلة التجار عما يدعيه الرجل من قرابة نبى العرب صلى الله عليه وسلم، فكتب صاحب خانفو بصحة نسبه فأذن له ووصله بمال واسع عاد به إلى العراق وكان شيخًا فهمًا، فأخبرنا إنه لما وصل إليه وسايله عن العرب، وكيف أزالوا ملك العجم، فقال له: بالله جل ذكره ومما كانت العجم عليه من عبادة النيران والسجود للشمس وللقمر من دون الله، فقال له: لقد غلبت العرب على أجلّ الممالك وأوسعها ريفًا وأكثرها أموالاً وأعقلها رجالاً وأبعدها صوتًا، ثم قال له: فما منزلة سآير الملوك عندكم؟، فقال: ما لى بهم علم، فقال للترجمان: قل له إنا نعد الملوك خمسة، فأوسعهم ملكا الذى يملك العراق لأنه فى وسط الدنيا والملوك محدقة به ونجد اسمه عندنا ملك الملوك، وبعد ملكنا هذا[٣٥] ، ونجده عندنا ملك النّاس لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا ولا أضبط لملكه من ضبطنا لملكنا ولا رعيّة من الرعايا أطوع لملوكها من رعيّتنا فنحن ملوك الناس، ومن بعدنا ملك السباع وهو ملك الترك الذى يلينا، وبعدهم ملك الفيلة وهو ملك الهند، ونجده عندنا ملك الحكمة لأن أصلها منهم، وبعده ملك الروم وهو عندنا ملك الرجال لأنه ليس فى الأرض أتم خلقًا من رجاله ولا أحسن وجوهًا، فهؤلاء أعيان الملوك والباقون دونهم.

ثم قال للترجمان: قل له أتعرف صاحبك إن رأيته، يعنى رسول الله صلى

---

(٣٤) يقصد بخراب البصرة ثورة الزنج التى اندلعت بها عام ٢٥٧هـ/ ٨٧٠ أو ٨٧١م، قبيل اندلاع ثورة الصين.

(٣٥) يعلق جابرييل فيران على ترتيب ملك الصين للملوك بأن ملك العراق يأتى فى الأولوية يليه فى المرتبة ملك الصين نفسه، بأن التحيز المقصود واضح لأن أحد أسماء الصين هو تشونج كو Tchog Kouo، ومعناها المملكة التى فى وسط الدنيا. وأنه من غير المعقول أن يعقد ملك الصين الأولوية للخليفة العربى فى بغداد، وفى المقابل فإن أبا زيد لا يستطيع أن يعترف بأولوية ملك الصين على الخليفة العباسى والشعب

الله عليه وسلم، فقلت: وكيف لى برؤيته وهو عند الله جل وعز، فقال: لم أرد هذا إنما أردت صورته، فقال: أجل فأمر بسفط فأُخرج فوُضع بين يديه، فتناول منه دَرَجًا، وقال للترجمان: أره صاحبه فرأيت فى الدرج صور الأنبياء فحركت شفتى بالصلاة عليهم، ولم يكن عنده أنى أعرفهم[٣٦]، فقال للترجمان: سله عن تحريك شفته، فسألنى فقلت: أصلى على الأنبياء، فقال: من أين عرفتهم؟ فقلت: بما صُوّر من أمرهم.. هذا نوح فى السفينة ينجو بمن معه لمّا أمر الله جل ذكره الماء فغمر الأرض كلها بمن فيها وسلّمه ومن معه، فضحك وقال: أما نوح فقد صدقت فى تسميته، وأما غرق الأرض كلها فلا نعرفه، وإنما أخذ الطوفان قطعة من الأرض ولم يصل إلى أرضنا ولا أرض الهند، قال ابن وهب: فتهيبت الرد عليه وإقامة الحجة لعلمى بدفعه ذلك. ثم قلت: هذا موسى وعصاه وبنو إسرائيل، فقال: نعم على قلة البلد الذى كان به وفساد قومه عليه، فقلت: وهذا عيسى على حمار والحواريون معه، فقال: لقد كان قصير المدّة إنما كان أمره يزيد على ثلاثين شهراً شيئًا يسيرًا وعدّد من أمر ساير الأنبياء ما اقتصرنا على ذكر بعضه، وزعم أنه رأى فوق كل صورة لنبى كتابة طويلة قدّر أن فيها ذكر أسمائهم ومواقع بلدانهم وأسباب نبواتهم، ثم قال: رأيت صورة النبى صلى الله عليه وسلم على جمل وأصحابه محدقون به على إبلهم فى أرجلهم نعال عربية وفى أوساطهم مساويك مشدودة فبكيت، فقال:

= العربى الذى اختاره الله لينزل قرآنه بلغته (مقدمة الترجمة الفرنسية، ص٢١)، ويلاحظ أن هذا الترتيب يتفق مع ما جاء فى الجزء الأول من هذا الكتاب فى ترتيبه ملوك الدنيا الأربعة المعدودين (ص٤٨).

ويورد المسعودى نفس الترتيب فى قصة مماثلة (صفحات ١٢١ ـ ١٢٤)، كما يورد هذا الترتيب فى موضع آخر، نافيًا بطريقة مباشرة أن له علاقة بالتحيز للعرب والإسلام، إذ يقول إن هذه الأولوية كانت معقودة لملك بابل ـ الذى أصبح فيما بعد ملك بغداد ـ منبهًا إلى أن هذا وصف ملوك هذا الإقليم فيما مضى لا فى هذا الوقت وهو سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة (٣٣٢هـ)، وأنهم كانوا يلقبون هذا الملك شاهنشاه، وتفسيره ملك الملوك ومنزلته فى العالم منزلة القلب من جسم الإنسان، والواسطة من القلادة (ص١٣٧).

ومن جهة أخرى يلاحظ أنه فى ظل حكم أسرة شانج (١٥٢٣ ـ ١٠٢٧ ق.م) لم يكن الناس يطلقون على بلدهم اسم «الصين»، فهذا اسم عربى أطلق فيما بعد، إنما كانوا يسمونها «المملكة الوسطى» (طريق الحرير ص٧٩)، ويقسم كونفوشيوس الأرض خمسة أقسام تقع الصين فى وسطها ومن حولها مجموعة جزر تكوّن بقية الدنيا (فيران المقدمة ص١١٢٧).

(٣٦) لم يكن عنده أنى أعرفهم: لم يكن يعلم أنى أعرفهم.

للترجمان سله عن بكايه، فقلت: هذا نبينا وسيدنا وابن عمى عليه السلام، فقال: صدقت لقد ملك هو وقومه أجل الممالك، إلا أنه لم يعاين ما ملك، وإنما عاينه مَن بعده، ورأيت صور أنبياء ذوى عدد كثير منهم من قد أشار بيده اليمنى وجمع بين الإبهام والسبابة كأنه يومئ فى إشارته إلى الحق، ومنهم قايم على رجله مشير بأصابعه إلى السماء، وغير ذلك زعم الترجمان أنهم من أنبيائهم وأنبياء الهند، ثم سألنى عن الخلفاء وزيّهم وكثير من الشرايع ووجوهها على قدر ما أعلم منها، ثم قال: كم عمر الدنيا عندكم؟، فقلت: قد اختلف فيه فبعض يقول ستة ألف سنة، وبعض يقول دونها، وبعض يقول أكثر منها إلا إنه بيسير، فضحك ضحكًا كثيرًا ووزيره أيضًا واقفٌ دلّ على إنكاره ذلك، وقال: ما أحسب نبيكم قال هذا، فزللت وقلت: بلى هو قال ذلك، فرأيت الإنكار فى وجهه، ثم قال للترجمان: قل له ميز كلامك، فإن الملوك لا تكلم إلا عن تحصيل، أمّا ما زعمت أنكم تختلفون فى ذلك، فإنكم إنما اختلفتم فى قول نبيكم وما قالته الأنبياء لا يجب أن يختلف فيه، بل هو مسلّم فاحذر هذا وشبهه إن تحكيه. وذكر أشياء كثيرة قد ذهبت عنى لطول العهد، ثم قال لى: لِمَ عدلت عن مَلِكك وهو أقرب إليك منا دارًا ونسبًا، فقلت: بما حدث على البصرة ووقوعى إلى سيراف ونظرى إلى مركب ينفذ إلى الصين، وما بلغنى من جلال ملك الصين وكثرة الخير به فأحببت الوقوع إلى تلك الناحية ومشاهدتها وأنا راجع عنها إلى بلادى ومُلكِ ابن عمى ومخبره بما شاهدت من جلال هذا الملك وسعة هذه البلاد وسأقولَ بكل حسن وأثنى بكل جميل، فسرّه ذلك وأمر لى بالجايزة السنية وبحملى على بغال البريد إلى مدينة خانفو، وكتب إلى ملكها بإكرامى وتقديمى على جميع من فى ناحيته من ساير الملوك وإقامة النزل لى إلى وقت خروجى، فكنت فى أخصب عيش وأنعمه إلى أن خرجت من بلاد الصين[٣٧].

مدينة خُمْدان:

فسألناه عن مدينة خُمْدان التى بها الملك وصفتها، فذكر سعة البلد وكثرة أهله وأنه مقسوم على قسمين يفصل بينهما شارع طويل عريض، فالملك ووزيره وجنوده وقاضى القضاة وخصيان الملك وجميع أسبابه فى الشقّ الأيمن منه وما

يلى المشرق لا يخالطهم أحد من العامة ولا فيه شىء من الأسواق، بأنهار فى سككهم مطردة، وأشجار عليها منتظمة، ومنازل فسيحة. وفى الشق الأيسر مما يلى المغرب الرعيّة والتجار والميسرة والأسواق، فإذا وضح النهار رأيت قهارمة الملك وأسبابه وغلمان داره وغلمان القواد ووكلايهم من بين راكب وراجل قد دخلوا إلى الشقّ الذى فيه الأسواق والتجار فأخذوا وظايفهم وحوائجهم، ثم انصرفوا فلم يعد أحد منهم إلى هذا الشق إلا فى اليوم الثانى(٣٨). وأن بهذا البلد من كل نزهةٍ وغيظةٍ(٣٩) حسنةٍ وأنهارٍ مطرّده إلا النخل فإنه معدوم.

اتصال البحور:

ومما حدث فى زماننا هذا ولم يعرفه مَن تقدمنا أنه لم يكن أحد يقدّر أن البحر الذى عليه بحر الصين والهند يتصل ببحر الشام ولا يقوم فى أنفسهم حتى كان فى عصرنا، هذا فإنه بلغنا أنه وجد فى بحر الروم خشب مراكب العرب

---

(٣٧) يرى كراتشكوفسكى أن هذه الحكاية ملفقة، وأن الدليل على ذلك ليس فى تفاصيل الحكاية وحدها والظروف التاريخية المحيطة بها، بل أيضا فى الموضوع نفسه وفى تاريخه الأدبى.. كذلك فإن أكثر من جغرافىٍ من جغرافيى نهاية القرن الثالث وبداية الرابع الهجرى/ التاسع والعاشر الميلاديين، يروونها بتفاصيل مختلفة، مثل: الدينورى (أبو حنيفة أحمد بن داود ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) فى كتابة الأخبار الطوال، وابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق الهمذانى) فى كتابة «البلدان» الذى ألفه حوالى عام ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م، والمسعودى (الحسين بن على ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م). كما يؤكد أن رحلة عبد الله بن الصامت إلى القسطنطينية والتى أوردها الدينورى بزعم أنها حدثت فى عهد أبى بكر، لم تحدث على الإطلاق (تاريخ الأدب الجغرافى العربى، صفحة ٥٦ ـ انظر النص المرفق بملاحق هذا الكتاب).
ويرى الأستاذ فؤاد قنديل فى كتابه «أدب الرحلة فى التراث العربى» أن رحلة ابن وهب حقيقية، وأنه يثق فى ذلك ثقة حدس لا ثقة تعتمد على دليل مادى أو عقلى: بل أثق أنها واحدة من مئات الرحلات المشابهة التى حدثت فى ظروف مختلفة ودوافع متباينة ولم تجد من يدونها وينقذها من الضياع (الهيئة العامة لقصور الثقافة، مكتبة الشباب ٣٤، ١٩٩٥، ص١١٨) لكنه يستدرك قائلا: إنه لا يخفى شكه فى الحوار الذى دار بين ملك الصين وابن وهب، ولعل مضمون هذا الحوار كان فكرة شائعة أضافها خيال بعض الرحالة إلى رحلاتهم ليضفوا عليها أهمية، ولعل هذا هو سر تكرارها فى أكثر من رواية.
معنى هذا أن قصة ابن الهبار تتأرجح بين الواقع وما طُعمت به من خيال شعبى كان نواة لما عُرف فى تراثنا بالقصص البحرى حيث تقلص الواقع ليصبح مجرد استلهام للقاص الشعبى ليبدع بناء فنيا يفسح المجال لخيال تصبح له الغلبة التامة على نحو ما نجد فى قصص مثل قصص السندباد البحرى.
(٣٨) هذا الوصف لمدينة خُمْدان أورده المسعودى فى مروج الذهب (ص١١٨).
(٣٩) غيظة: غيضة إنما تقلب الضاد ظاء فى بعض اللهجات ، جمعها غياض أى الموضع الذى يكثر فيه الشجر.

المخروزه[٤٠] التى قد تكسرت بأهلها فقطعها الموج وساقتها الرياح بأمواج البحر فقذفته إلى بحر الخزر، ثم جرى فى خليج الروم ونفذ منه إلى بحر الروم والشام، فدل هذا على أن البحر يدور على بلاد الصين والسّيلا، وظهر بلاد الترك والخزر ثم يصب فى الخليج ويفضى إلى بلاد الشام، وذلك أن الخشب المخروز لا يكون إلا لمراكب سيراف خاصة، ومراكب الشام والروم مسمورة[٤١] غير مخروزة، وبلغنا أيضًا أنه وجد ببحر الشام عنبر، وهذا من المستنكر وما لم يُعرف فى قدم الدهور، ولا يجوز إن كان ما قيل حقّا أن يكون العنبر وقع إلى بحر الشام إلا من بحر عدن والقلزم، وهو البحر الذى يتصل بالبحار التى يكون فيها العنبر، لأن الله جل ذكره قد جعل بين البحرين حاجزًا، بل هو إن كان صحيحًا مما يقذفه بحر الهند إلى ساير البحار واحدًا بعد واحد حتى يفضى به إلى بحر الشام[٤٢].

ذكر مدينة الزابج: [٤٣]

ثم نبتدى بذكر مدينة الزابج، إذ كانت تحاذى بلاد الصين، وبينهما مسيرة شهر فى البحر، وأقل من ذلك إذا ساعدت الرياح، وملكها يعرف بالمهراج، ويقال: إن تكسيرها[٤٤] تسعماية فرسخ، وهذا الملك مملّك على جزاير كثيرة يكون مقدار

---

(٤٠) أى المخيطة ولا مسامير لها، حيث كانوا يثقبون حافة ألواح السفينة على مسافات متساوية، ثم يستخدمون الخيوط المصنوعة من ألياف جوز الهند لعملية الخياطة والقلافة (خرز الألواح بالليف ووضع القار خلالها)، كما تحشر الألياف فيما بين الألواح (انظر مناقشة تعليل صناعة هذا النوع من السفن فى المحيط الهندى والبحر الأحمر فى كتابنا: يوسف الشارونى: مع التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦، تحت عنوان: سفن بلا مسامير بين الحقيقة والأساطير، صفحات ١٩١ ـ ٢٠٠). وتتكرر الإشارة إلى هذا النوع من السفن فى كتب الجغرافيين والرحالة العرب، مثل: القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود ٦٠٠ ـ ٦٨٢هـ/ ١٢٠٤ ـ ١٢٨٣م) فى كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» صفحات ٩٠ و ١٢٠ و ١٥٧. وابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى ٧٠٣ ـ ٧٧٨هـ/ ١٣٠٤ ـ ١٣٧٧م) فى كتابه «تحفة النظار» ص ٣٨٤.

(٤١) المسمورة، أى ذات المسامير.

(٤٢) استخدم المسعودى نفس دليل وجود حطام مراكب مخيطة فى البحر المتوسط على اتصال البحار ببعضها، حيث إن هذا النوع من المراكب لا يُستخدم إلا فى المحيط الهندى، وحيث إنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن المحيط الهادى الذى يصل المحيط الهندى بالبحار المعروفة وقتئذ فى العالم القديم، ولم تكن قناة السويس التى تصل البحرين الأحمر بالأبيض قد أنشئت بعد.

(٤٣) الزابج: جزيرة جاوه حاليّا.

(٤٤) تكسيرها، أى مساحتها.

مسافة مُلْكه ألف فرسخ وأكثر، وفى مملكته جزيرة تعرف بسَرَبْزَة[٤٥] تكسيرها على ما يذكرون أربع ماية فرسخ، وجزيرة أيضًا تعرف بالرامى تكسيرها ثمانماية فرسخ فيها منابت البقّم[٤٦] والكافور وغيره، وفى مملكته جزيرة كَلَه وهى المنصّف بين أراضى الصين وأرض العرب، وتكسيرها على ما يذكرون ثمانون فرسخًا. وبكَلَه مجمع الأمتعة من الأعواد والكافور والصندل والعاج والرصاص القلعى[٤٧] والأبنوس والبقّم والأفاوية[٤٨] كلها وغير ذلك مما يتسع ويطول شرحه، والجهاز[٤٩] من عُمان فى هذا الوقت إليها ومنها إلى عمان واقع، وأمر المهراج نافذ فى هذه الجزاير وجزيرته التى هو بها فى غاية الخصب وعمارتها منتظمة، وذكر من يوثق بقوله: إن الديكة إذا غرّدت فى الأسحار للأوقات كتغريدها عندنا تجاوبت إلى مائة فرسخ وما فوقها يجاوب بعضها بعضًا لاتصال القرى وانتظامها، وأنه لا مفاوز فيها ولا خراب، وأن المتنقل فى بلادهم إذا سافر وركب الظهر سار إذا شاء، فإذا ملّ وكلّ الظهر نزل حيث شاء.

ومن عجيب ما بلغنا من أحاديث هذه الجزيرة المعروفة بالزابج أن ملكًا من ملوكهم فى قديم الأيام وهو المهراج وقصره على ثلاج[٥٠] يأخذ من البحر، ومعنى الثّلاج واد كدجلة مدينة السلم والبصرة يغلب عليه ماء البحر بالمدّ وينضب عنه الماء العذب بالجزر، ومنه غدير صغير يلاصق قصر الملك، فإذا كان فى صبيحة كل يوم دخل قهرمان الملك ومعه لَبِنَة[٥١] قد سبكها من ذهب فيها مَنٌّ[٥٢] قد خفى عنى مبلغها، فيطرحها بين يدى الملك فى ذلك الغدير، فإذا كان

(٤٥) سربزه: يرجح رينو أنها جزيرة سومطرة حاليًا، بينما يحدد فان ديرليت محقق كتاب «عجائب الهند» أنها مدينة بالمبانج Palembang حاليًا بسومطرة (انظر كشاف عجائب الهند للأماكن الجغرافية ص١٦٤).

(٤٦) البقّم: شجر من فصيلة القطانيات، ورقه كورق اللوز وساقة حمراء، ويحتوى خشبه على مادة ملونة تستعمل فى الصناعة (المنجد).

(٤٧) الرصاص القلعى: الرصاص الجيد، وهو الشديد البياض (المعجم الوسيط).

(٤٨) الأفاويه: ما يعالج به الطيب، كما أن التوابل ما تعالج به الأطعمة (لسان العرب لابن منظور).

(٤٩) الجهاز: أى السفن أو الأسطول.

(٥٠) الثلاج: شرحها مؤلف «عجائب الهند»، بمعنى بستان.. أصلها هندى.

(٥١) لَبِنَة: ترجمها فيران بمعنى: سبيكة (جمعها: اللبن)، ومعناها الأصلى: المضروب من الطين للبناء دون دخوله النار.

(٥٢) المن: وحدة عملة.

المدّ علاها وما كان مجتمعًا معها من أمثالها وغمرها، فإذا كان الجزر نضب عنها فأظهرها فلاحت فى الشمس والملك مطلع عليها عند جلوسه فى المجلس المطل عليها، فلا تزال تلك حاله يطرح فى كل يوم فى ذلك الغدير لبنة من ذهب ما عاش ذلك الملك من الزمان لا يُمس شىء منه، فإذا مات الملك أخرجها القايم من بعده كلها فلم يَدَعْ منها شيئًا وأُحصيت ثم أذيبت وفُرّقت على أهل بيت المملكة رجالهم ونسايهم وأولادهم وقوادهم وخدمهم على قدر منازلهم ورسوم لهم فى كل صنف منهم، فما فضل بعد ذلك فُضّ على أهل المسكنة والضعف، ثم دُوِّن عدد اللبن الذهب ووزنه، وقيل: إن فلانًا ملك من الزمان كذا وكذا سنة، وخلف من لبن الذهب فى غدير الملوك كذا وكذا لبنة، وأنها فُرقت بعد وفاته فى أهل مملكته، فالفخر عندهم لمن امتدت أيام ملكه وزاد عدد اللبن الذهب فى تركته.

قصة ملك القُمار مع المهراج ملك الزابج:

ومن أخبارهم فى القديم أن ملكًا من ملوك القمار[٥١] ، وهى الأرض التى يُجلب منها العود القمارى وليست بجزيرة، بل هى على ما يلى أرض العرب، وليس فى شىء من المماليك أكثر عددًا من أهل القُمار وهم رجّاله، كلهم يحرّمون الزنا والأنبذة كلها فلا يكون فى بلادهم ومملكتهم شىء منه، وهى مسامتة لمملكة المهراج والجزيرة المعروفة بالزابج وبينهما مسافة عشرة أيام إلى عشرين يومًا عرضًا فى البحر إذا كانت الريح متوسطة، فقيل: إن هذا الملك يُقلد الملك على القمار فى قديم الأيام وهو حدث متسرع، وأنه جلس يومًا فى قصره وهو مشرف على وادٍ يجرى بالماء العذب كدجلة العراق وبين قصره والبحر مسيرة يوم ووزيره بين يديه، إذ قال لوزيره، وقد جرى ذكر مملكة المهراج وجلالتها وكثرة عمارتها وما تحت يده من الجزاير: فى نفسى شهوة كنت أُحب بلوغها، فقال له الوزير وكان ناصحًا وقد علم منه السرعة: ماهى أيها الملك؟ قال: كنت أحب أن أرى رأس المهراج ملك الزابج فى طست بين يدىّ، فعلم الوزير أن

(٥١) القمار: الخمير أو كمبوديا سابقاً، ورجاله أى يسيرون على الأقدام. ومسامته يقصد متسامتة، بمعنى على نفس خط الطول .

الحسد أثار هذا الفكر فى نفسه، فقال: أيها الملك ما كنت أحب أن يحدّث الملك نفسه بمثل هذا إذ لم يجر بيننا وبين هؤلاء القوم لا فى فعل ولا فى حديث تَرِه(٥٤) ولا رأينا منهم شراً وهم فى جزيرة نائية غير مجاورة لنا فى أرضنا ولاً طامعين فى مُلكنا، وليس ينبغى أن يقف على هذا الكلام أحد، ولا يعيد الملك فيه قولاً، فغضب ولم يسمع منه الناصح، وأذاع ذلك لقواده ومن كان يحضره من وجوه أصحابه، فتناقلته الألسن حتى شاع واتصل بالمهراج وكان جزْلاً(٥٥) متحركًا(٥٦) محنّكا قد بلغ فى السن مبلغًا متوسطًا، فدعا بوزيره وأخبره مما اتصل به، وقال له: ليس يجب مهما شاع من أمر هذا الجاهل وتمنيه ما تمناه بحداثة سنّه وغرّته وانتشار ذلك من قوله أن نمسك عنه، فإن ذلك مما يفتّ فى عضد المُلك ويُنقصه ويضع منه. وأمره بسَتْر ما جرى بينهما، وأن يعد له ألف مراكب من أوساط المراكب بالأنهار ويندب لكل مركب منها من حملة السلاح وشجعان الرجال من يستقل به، وأظهر أنه يريد التنزه فى الجزاير التى فى مملكته، وكتب إلى الملوك الذين فى هذه الجزاير وهم فى طاعته وجملته مما عزم عليه من زيارتهم والتنزه بجزايرهم، حتى شاع ذلك وتأهب ملك كل جزيرة لما يصلح للمهراج، فلما استتب أمره وانتظم دخل فى المراكب وعبر بها وبالجيش إلى مملكة القمار، وهو وأصحابه أهل سواك دايم يفعل الرجل منهم ذلك فى اليوم مرات وسواك كل واحد منهم معه لا يفارقه أو مع غلامه(٥٧) ، فلم يشعر به ملك القمار حتى هجم على الوادى المفضى إلى دار ملك القمار وطرح رجاله فأحدقوا به على سبيل غرّة، فأخذه واحتوى على داره وطار أهل المملكة من بين يديه، فأمر بالنداء بالأمان وقعد على السرير الذى كان يجلس عليه ملك القمار وقد أخذه أسيراً فأحضره وأحضر وزيره. فقال لملك القمار: ما حملك على تمنى ما ليس فى وسعك ولا لك فيه حظ لو نلته ولا أوجبه سبب يسهّل السبيل إليه، فلم يحر جوابا، ثم قال له المهراج: أما إنك لو تمنيت مع ما تمنيته من النظر إلى

---

(٥٤) حديث تَرِه: أى وقع فى الترهات، أى حديث فارغ.

(٥٥) جَزُل فلانٌ: صار ذا رأى جيد قوى محكم. ويقال جَزُل رأيه، فهو جزْل وجزيل (المعجم الوسيط).

(٥٦) متحركًا، أى ذو حيوية.

(٥٧) يبدو أن المقصود بذلك كان مواصلة التظاهر بالاسترخاء وعدم الاستعداد للحرب كنوع من التمويه على العدو، حرصًا على المفاجأة كعنصر هام من عناصر الانتصار.

رأسى فى طست بين يديك إباحة أرضى وملكها أو الفساد فى شىء منها لاستعملت ذلك كله فيك، لكنك تمنيت شيئا بعينه فأنا فاعله بك وراجع إلى بلدى من غير أن أمدّ يدًا إلى شىء من بلادك مما جلّ ودقّ لتكون عظة لمن بعدك ولا يتجاوز كلٌ قدره وما قُسم له وأن يستغنم العافية[٥٨] من لبسته[٥٩]، ثم ضرب عنقه. ثم أقبل على وزيره فقال له: جُزيت خيرًا من وزير، فقد صح عندى أنك أشرت على صاحبك بالرأى لو قبل منك، فانظر من يصلح للمُلك مِن بعد هذا الجاهل فأقمه مقامه، وانصرف من ساعته راجعًا إلى بلاده من غير أن يمدّ هو ولا أحد من أصحابه يده إلى شىء من بلاد القمار، فلما رجع إلى مملكته قعد على سريره وأشرف على غديره ووضع الطست بين يديه وفيها رأس ملك القمار وأحضر وجوه مملكته وحدّثهم بخبره والسبب الذى حمله على ما أقدم عليه، فدعا له أهل ملكته وجزوه خيرًا، ثم أمر بالرأس فغسل وطُيّب وجعله فى ظرف وردّه إلى الملك الذى قام بالأمر ببلاد القمار من بعد الملك المقتول. وكتب إليه أن الذى حملنى على ما فعلناه بصاحبك بغيه علينا وتأديبنا لأمثاله. وقد بلغنا منه ما أراده بنا ورأينا رد الرأس إليك، إذ لا دَرَكَ[٦٠] لنا فى حبسه ولا فخر مما ظفرنا به منه. واتّصل الخبر بملوك الهند والصين فعظم المهراج فى أعينهم وصارت ملوك القمار من بعد ذلك كلما أصبحت قامت وحولّت وجوهها نحو بلاد الزابج فسجدت وكفّرت[٦١] للمهراج تعظيمًا له.

التناسخ:

وساير ملوك الهند والصين يقولون بالتناسخ ويدينون به، وذكر بعض من يوثق بخبره أن ملكًا من ملوكهم جدّر، فلمّا خرج من الجدرى نظر فى المرآة فاستقبح وجهه، فأبصر ابنا لأخيه فقال له: ليس مثلى أقام فى هذا الجسم على تغيّره، وإنما هو ظرف للروْح متى زال عنه عاد فى غيره فقُم بالمُلْك فإنى مزيل بين

(٥٨) أى أن يعتبر الصحة غنيمة.

(٥٩) ترجمها فيران: طالما هو مستمتع بها.

(٦٠) لا درك لنا فى حبسه: لا مصلحة لنا فى الاحتفاظ به.

(٦١) كفّرت: أى خشعت.

جسمي وروحي إلى أن أنحدر فى جسم غيره،ثم دعا بخنجر له مشحوذ قاطع فأمر به فحز رأسه، ثم أُحرق.

رجع إلي أخبار الصين .. ذكر بعض أمورهم:

كان أهل الصين من شدة التفقد لأمرهم فى قديم أيامهم وقبل تغيره فى هذا الوقت على حالة لم يسمع بمثلها، وقد كان رجل من أهل خراسان ورد العراق فابتاع متاعًا كثيرًا وخرج إلى بلاد الصين وكان فيه بخلُ وشحٌ شديد فجرى بينه وبين خصيّ للملك كان أنفذه إلى خانفو، وهى المدينة التى تقصدها تجار العربْ لأخذ ما يُحتاج إليه مما يرد فى المراكب، وكان هذا الخصيّ من أجلّ خدم الملك وإليه خزاينه وأمواله، فقامت مشاجرة فى أمتعة العاج وغيره امتنع «التاجر» من بيعها[٦٢] ،حتى شرق الأمر بينهما وحمل الخصيّ نفسه على انتزاع خيار الأمتعة التى كانت معه واستهان بأمره، فشخص مستخفيا حتى ورد خُمْدان وهو بلد الملك الكبير فى مقدار شهرين من الزمان وأكثر، فخرج إلى السلسلة التى وُصفت فى الكتاب، وسبيل من حرّكها على الملك الكبير أن يباعد إلى مسيرة عشرة أيام على سبيل النفى ويؤمر بحبسه هناك شهرين، ثم يخرجه ملك تلك الناحية، ويقول: إنك تعرضت فيه بوارك وسفك دمك إن كنت كاذبًا، وإذ كان الملك قد قرب لك ولأمثالك من وزرائه وملوكه من لا يعوزك الانتصاف بهم. واعلم أنك متى وصلت إلى الملك فلم يكن ما تظلمت منه مما يجب فى مثله الوصول إليه، فليس دون دمك شيء لئلا يقدم على ما أقدمت كل من يهم بمثله، فاستقل نقلك وامض لشأنك، فإن استقال ضُرب خمسين خشبة ونُفى إلى البلاد التى منها قصد، وإن أقام على مظلمة[٦٢م] وصل، ففُعل ذلك بالخراسانى، فأقام على ظلامته والتمس الوصول، فبُعث به ووصل إلى الملك فسايله الترجمان عن أمره فأخبره مما جرى عليه من الخادم وانتزاعه من يده ما انتزع. وكان الأمر فيه قد شاع بخانفو وذاع، فأمر الملك بحبس الخراسانى وإزاحة علته[٦٣] فى

(٦٢) بالسعر الذى حدده (إضافات بين قوسين فى ترجمة فيران).وشرق ترجمها رينو بمعنى احتدم S'echauffa.

(٦٢)م إن أقام على مظلمة: أى إن ظل مصرّاً على شكواه.

(٦٣) إزاحة علته: أى التكفل به.

مطعمه ومشربه، وتقدّم إلى وزيره فى الكتاب إلى العمال بخانفو بالفحص عما ادعاه الخراسانى وكشفه والصدق عنه، وأمر صاحب الميمنة والميسرة وصاحب القلب بمثله، وهؤلاء الثلاثة عليهم يدور بعد الوزير أمر جيوشه ويثق بهم على نفسه، وإذا ركب بهم لحرب أو غيره كان كل واحدٍ منهم فى مرتبته، فكتب كل واحدٍ منهم وقد كشف عن الأمر مما وقف به على صحة الدعوى من الخراسانى، فتتابعت به الأخبار عند الملك من كل جهة، فأشخص[٦٤] الخصىّ، فلما ورد قبض أمواله ونزع خزاينه من يده، وقال له: كان حقك القتل إذ عرضتنى لرجل قد سلك من خراسان وهى على حد مملكتى وصار إلى بلاد العرب، ومنها إلى ممالك الهند، ثم إلى بلدى طلبًا للفضل، فأردت أن يعود مجتازًا بهذه الممالك ومن فيها، فيقول: إنى ظُلمت ببلاد الصين وغُصبت أموالى، لكننى أتجافى عن دمك[٦٥] لقديم حرمتك وأولّيك تدبير الموتى إذ عجزت عن تدبير الأحياء، وأمر به فجعله فى مقابر الملوك يحرسها ويقوم بها[٦٦].

اختيار القضاة :

ومن عجيب تدبيرهم فى قديم الأيام دون هذا الوقت أمر الأحكام وجلالها فى صدورهم واختيارهم لها من لا يخالج قلوبهم الشك فى عِلْمِه بشرايعهم وصدق لهجته وقيامه بالحق فى كل أحواله وتجنبه الإغماض عمن جلّ مقداره حتى يقع الحق موقعه، ويكون عفيفا عن أموال أهل الضعف وما يجرى على يده، فإذا عزموا على تقليد قاضى القضاة أنفذوه قبل تقليده إلى جميع البلدان التى هى أعمدة بلادهم حتى يقيم فى كل بلد شهرًا أو شهرين فيبحث عن أمر أهله وأخبارهم ورسومهم[٦٧] ،ويعلم من يجب قبول قوله منهم معرفة يستغنى بها عن المسألة[٦٨]،فإذا سلك به هذه الأمصار ولم يبق فى المملكة بلد جليل إلا

(٦٤) أشخص فلانًا، أى بعث به لكن هنا بمعنى استدعاه.

(٦٥) اتجافى عن دمك: أتجاوز عن قتلك.

(٦٦) هذه القصة أوردها المسعودى فى «مروج الذهب» (صفحات ١٢٠ ـ ١٢١).

(٦٧) رسومهم: عاداتهم.

(٦٨) أى يعرف من الذين يمكن الاعتماد على شهاداتهم، بحيث يستغنى عن شهادة منْ يتطلب الأمر السؤال أو الاستعلام عنهم.

وطيه(٦٩) رحل إلى دار المملكة ووُلّى قضاة القضاة وجُعل إليه اختبارهم، فيليهم. وعلمه بجميع المملكة ومن يجب أن يقلد فى كل بلد من أهله أو غيرهم عِلْمَ من يستغنى بعلمه عن الرجوع إلى مَن لعله أن يميل فيه، أو يقول بغير الحق فيما يُسأل عنه ولا يتهيأ لأحدٍ من قضاته أن يكاتبه بشىء قد علم خلافه أو يزيله عن جهته. ولقاضى القضاة منادٍ فى كل يوم على بابه يقول: هل من متظلم على الملك المستور عن عيون رعيته أم من أحد من أسبابه(٧٠) وقواده وسائر رعيته، فإنى أنوب فى ذلك كله عنه لما بسط به يدىّ وقلّدنى، يقول ذلك ثلاثًا، لأن الملك فى عقدهم(٧١) أن المَلك لا يزول عن موضعه(٧٢) حتى تنفذ الكتب من دواوين الملوك بالجور المصرّح(٧٣)، وأن يهمل أمر الحكم والحكام، وأنه متى تحفّظ من هذين الأمرين فلم تنفذ الكتب من الدواوين إلا بالعدل ولم يلِ الحكم إلا من يقوم بالحق فالمُلك منتظم.

فأما خراسان ومتاخمتها لبلاد الصين، فالذى بينها وبين الصُّغد(٧٤) مسيرة شهرين، إلا أنه فى مفازة ممتنعة ورمالٍ منتظمة لا ماء فيها ولا أودية لها ولا عمارة بقربها، فهو السببُ المانعُ من هجُوم أهلِ خراسان على بلدهم، وأما ما كان من الصين يلى مغرب الشمس، وهو الموضع المعروف بمدّو فهو على حدود التبت والحروب بينهم متصلة.

المسك :

وقد رأينا ممن دخل الصين ذكر أنه رأى رجلاً حمل على ظهره مسكًا فى زق وورد من سمرقند راجلاً يقطع بلدًا بلدًا من مدن الصين حتى صار إلى خانفو وهو مجتمع التجار القاصدين من سيراف، وذلك أن الأرض التى بها ظباء المسك

---

(٦٩) وطأه: مر به.

(٧٠) أسبابه: موظفيه.

(٧١) فى عقدهم: فى عُرفهم.

(٧٢) لا يزول عن موضعه: لا يغادر مقره.

(٧٣) الجور المصرح: الظلم الواضح أى: إلا بعد ان تأتيه التقارير ألا ظلم هناك أو إهمال.

(٧٤) الصُّغْد أو سُغْد: تقع حاليًا فى جنوب روسيا، تمتد من نهر أوكسوس (أمودَريا) إلى نهر يكسرت (سر دريا) (المنجد).

الصينى والتبت[٧٥] أرض واحدة لا فرق بينهما، فأهل الصين يجتذبون ما قرب منهم من الظباء، وأهل التبت ما قرب منهم، وإنما فضل المسك التبتىّ على الصينى بحالتين إحديهما[٧٥] أن ظبى المسك يكون فى حدّ التبتّ رَعْيُه من سنبل الطيب، وما يلي ارض الصين منها رَعْيُه ساير الحشايش. والحالة الأخرى ترك أهل التبت النوافج[٧٦] فى حالها[٧٧]، وغشّ أهل الصين لما وقع إليهم منها، وسلوكهم أيضًا فى البحر[٧٨]، وما يلحقهم من الأنداء[٧٩] ،فإذا ترك أهل الصين المسك فى نوافجة وأودعت البرابى[٨٠] واستُوثق منها[٨١] ورد أرض العرب كالتبتّى فى جودته. وأجود المسك كله ما حكّه الظبى على أحجار الجبال إذ كان مادة تصير فى سرّته ويجتمع دمًا عبيطًا[٨٢] كاجتماع الدم فيما يعرض من الدمامل، فإذا أدرك حكّه وأضجره فيفزع إلى الحجارة حتى يخرقه فيسيل ما فيه، فإذا خرج عنه جفّ واندمل وعادت المادة تجتمع فيه من ذى قبل. وللتبت رجال يخرجون فى طلب هذا ولهم به معرفة، فإذا وجدوه التقطوه وجمعوه وأودعوه النوافج وحُمِل إلى ملوكهم، وهو نهاية المسك إذ كان قد أدرك[٨٣] فى نوافجه على حيوانه وصار له فضل على غيره من المسك كفضل ما يُدرك من الثمار فى شجرة على سائر ما يُنزع منه قبل إدراكه، وغير هذا من المسك فإنما يصاد بالشرك المنصوب أو السهام، وربما قطعت النوافج عن الظبى قبل إدراك المسك فيها. وعلى أنه إذا قطع عن ظبايه كان كريه الرائحة مدّة من المدّد حتى جف على الأيام الطويلة، وكلما جف استحال حتى يصير مسكا، وظبى المسك كساير الظباء عندنا فى القدّ واللون

---

(٧٥) صحتها: التبَى. وإحديهما حجتها: إحداهما.

(٧٦) النوافج مفردها نافجة: وعاء المسك فى جسم الظبى، وهو سرة غزال المسك (فارسية).

(٧٧) فى حالها، أى على حالتها الطبيعية.

(٧٨) أى عند تصديره بحراً.

(٧٩) وما يلحقهم من الأنداء: أى من الرطوبة.

(٨٠) البرابى: الأوعية.

(٨١) استوثق منها: أى أُحكم إغلاقها.

(٨٢) دم عبيط: دم طارج، طرىّ.

(٨٣) أدرك: نضج.

ودقة القوائم وافتراق الأظلاف وانتصاب القرون وانعطافها، ولها نابان دقيقان أبيضان فى الفكين قايمان فى وجه الظبى طول كل واحد منهما مقدار فِتْر ودونه على هيئة ناب الفيل، فهو الفرق بينها وبين سائر الظباء[٨٤].

بعض أخبار الصين:

ومكاتبات ملوك الصين لملوك أمصارهم[٨٥] وخصيانهم على بغال البريد مجززة[٨٦] الأذناب على سبيل بغال البريد عندنا على سكك معروفة.

وأهل الصين مما وصفناه من أمرهم يبولون من قيام[٨٧] وكذلك سائر رعيتهم من أهل بلادهم، فأما الملوك والقواد والوجوه فلهم أنابيب من خشب مدهونه طول كل خشبة منها ذراع وفى الطرفين ثقبتان تتسع العليا للحشفة[٨٨] فيقف على رجله إذا أراد البول ويُباعدها عن نفسه ويبول فيها يزعمون أن ذلك أصح لأجسامهم، وأن سائر ما يعترى من وجع المثانة والبول من الاستحجار[٨٩] فيها إنما هو من الجلوس للبول وأن المثانة لا تطفو[٩٠] مما فيها إلا مع القيام لذلك.

---

(٨٣) أدرك: نضج.

(٨٤) قارن هذا بما يقوله القزوينى فى كتابه «عجائب المخلوقات»: أما ظباء المسك فإنهم كظباء بلادنا، إلا أن لها نابين معقفين خارجين من الفم كما للفيل، وربما صيدت والمسك فى سُرّتها غير نضجة فيه زهومة، ومثله مثل الثمار إذا قطعت قبل الإدراك، فإنها تكون ناقصة الطعم والرائحة. وأجود المسك ما ألقاه الغزال، وذلك أن الطبيعة تدفع مواد الدم فى سرته، فإذا استحكم الدم فيها ونضج يجمع من ذلك إربة وحكة فى سرته، فيفزع حينئذ إلى صخرة حادة فيحتك بها ملتذا، فتنفجر المادة عندئذ وتسيل على ذلك الحجر كانفجار الخرّاج والدّماميل إذا نضجت فيجد الغزال بخروجها لذة. والناس يتبعون مراعيها فى الجبال فيجدون ذلك الدم قد جف على الصخور فيحملونه ويدعونه فى نوافج (أى يضعونها فى أوان) معهم مدة لذلك. فهذا هو أصل المسك الذى يستعمله ملوكهم ويتهادونه فيما بينهم (عجائب المخلوقات، صفحات ٢٥٠ ـ ٢٥١).

(٨٥) ملوك أمصارهم: هنا بمعنى حكام أقاليمهم.

(٨٦) مجززة: مقطوعة.

(٨٧) من قيام: واقفون.

(٨٨) الحشفة: ما يكشف عنه الختان فى عضو التذكير، والمقصود هنا عضو التذكير.

(٨٩) الاستحجار: تكوين الحصى.

(٩٠) تطفو: هنا بمعنى تفرغ.

والسبب فى تركهم الشعور على رؤوسهم، أعنى الرجال، امتناعهم من تدوير رأس المولود وتقويمه كما يستعمل[٩١] العرب، وقولهم: إن ذاك مما يزيل الدماغ عن حاله التى خُلق عليها وأنه يفسد الحاسة المعروفة[٩٢] فرؤوسهُم مضطربة[٩٣] يسترها الشعر ويعفّى[٩٤] عليها. فأما المناكح ببلاد الصين وهم شعوب وقبائل كشعوب بنى إسرائيل والعرب وبطونها يتعارفون ذاك بينهم، ولا يزوج أحد منهم قريبًا ولا ذا نسب، ويتجاوزون ذلك حتى لا تتزوج القبيلة فى قبيلتها. مثال ذلك: أن بنى تميم لا تتزوج فى تميم وربيعة لا تتزوج فى ربيعة، وإنما تتزوج ربيعة فى مُضَر ومُضَر فى ربيعة، ويدّعون أن ذلك أنجب للولد.

بعض أخبار الهند:

فى مملكة بلهرا وغيره من ملوك الهند من يحرق نفسه بالنار، وذلك لقولهم بالتناسخ وتمكّنه فى قلوبهم وزوال الشك فيه عنهم، وفى ملوكهم من إذا قعد للمُلْك طُبخ له أرز ثم وُضع بين يديه على ورق الموز وينتدب من أصحابه الثلثماية والأربعماية باختيارهم لأنفسهم لا بإكراه من الملك لهم، فيعطيهم الملك من ذلك الأرز بعد أن يأكل منه ويتقرب رجل رجل منهم فيأخذ منه شيئاً يسيراً فيأكله فيلزم كل من أكل من هذا الأرز إذا مات الملك أو قُتل أن يحرقوا أنفسهم بالنار عن آخرهم فى اليوم الذى مات فيه لا يتأخرون عنه حتى لا يبقى منهم عين ولا أثر[٩٥]، وإذا عزم الرجل على إحراق نفسه صار إلى باب الملك فاستأذن ثمّ دار فى الأسواق وقد أُججت له النار فى حطب جزل كثير عليها رجال يقومون بإيقادها حتى تصير كالعقيق حرارة والتهابًا، ثم يعدو وبين يديه الصنوج دايراً فى

(٩١) كما يستعمل: كما يفعل.
(٩٢) يعنى الذكاء.
(٩٣) مضطربة: مشوهة.
(٩٤) ويعفّى: يغطى.

الأسواق وقد احتوشه[96] أهله وقرابته. وبعضهم يضع على رأسه إكليلاً من الريحان ملاؤّه جمرا ويُصبّ عليه السندروس[97] ،وهو مع النار كالنفط ويمشى وهامته تحترق وروايح لحم رأسه يفوح وهو لا يتغير فى مشيته ولا يظهر منه جزع، حتى يأتى النار فيثب فيها فيصير رمادا، فذكر بعض من حضر[98] رجلاً منهم يريد دخول النار أنه لمّا أشرف عليها أخذ الخنجر فوضعه على رأس فؤاده فشقّه بيده إلى عانته، ثم أدخل يده اليسرى فقبض على كبده فجذب منها ما تهيأ له وهو يتكلم، ثم قطع بالخنجر منها قطعة فدفعها إلى أخيه استهانة بالموت وصبراً على الألم، ثم زجّ بنفسه فى النار إلى لعنة الله. وزعم هذا الرجل الحاكى أن فى جبال هذه الناحية قوماً من الهند سبيله سبيل الكنيفية والحليدية عندنا فى طلب الباطل والجهل بينهم وبين أهل الساحل عصبية، وأنه لا يزال رجل من أهل الساحل يدخل الجبل فيستدعى من يصابره على التمثيل بنفسه، وكذلك أهل الجبل لأهل الساحل، وأن رجلا من أهل الجبال صار إلى أهل الساحل لمثل ذلك، فاجتمع إليه الناس بين ناظر ومتعصب، فطالب أهل العصبية بأن يصنعوا مثل ما يصنع، فإن عجزوا عنه اعترفوا بالغلبة، وأنه جلس

---

(٩٥) ورد ذكر هذا التقليد فى كتاب «عجائب الهند»، وسمى أصحاب الملك «بلاوجرية» (ص١٠٦ ـ ١٠٧)، كما ذكره المسعودى فى مروجه (ص١٨٠)، وسماهم «بلانجرية» ومفردها: بلانجرى.

(٩٦) احتوشه: أحاط به.

(٩٧) السندروس: صمغ شجر من فصيلة المخروطيات يجلب من نواحى أرمينية ويتداوى به (المعجم الوسيط)، ويفهم من النص أنه سريع الاشتعال.

(٩٨) يرى رينو أن المقصود بشاهد العيان هنا هو المسعودى باعتباره شاهد عيان لهذه الحادثة (مروج الذهب، ص١٧٩)، وذلك على أساس أنه كانت هناك صلة بين مؤلفىْ الجزء الثانى من «أخبار الصين والهند»، و«مروج الذهب»، وذلك باعتراف المسعودى، وأنه كما أعلن المسعودى أن بعض ما أورده فى كتابه مستمد مما رواه له أبو زيد حسن السيرافى، فلا يستبعد أن يحدث العكس، لا فى هذه القصة فقط بل فى غيرها من القصص الموجودة فى الكتابين. وفيما يتصل بعادة حرق الهنود أنفسهم يقول المسعودى: ومنهم من يصير إلى باب الملك يستأذن فى إحراق نفسه، فيدور فى الأسواق وقد أججت له النار العظيمة وعليها من قد وُكل بإيقادها. ثم يسير فى الأسواق وقدامه الطبول والصنوج، وعلى بدنه أنواع من خرق الحرير قد مزقها على نفسه، وحوله أهله وقرابته، وعلى رأسه إكليل من الريحان وقد قشر جلده عن رأسه، وعليها الجمر، وعليها الكبريت والسندروس فيسير وهامته تحترق، وروائح دماغه تفوح وهو يمضغ ورق التنبول وحبّ الفوفل (ص ١٧٨ ـ ١٧٩). ومن الملاحظ أن أبا زيد ينسب القصة التالية للراوى نفسه الذى يصفه فى نهايتها بالصدق، إذ يقول: «أخبرنا بهذا من لا نتهمه».

عند رأس منابت القنى وأمرهم باجتذاب قناة من تلك القنى وسبيله سبيل القصب فى التفافه وأصله مثل الدّن وأغلظ، وإذا حطّ رأس القناة استجابت حتى تقارب الأرض فإذا تُركت عادت إلى حالها، فجذب رأس قناة غليظة حتى قربت منه، ثم شدّ بها ضفائره شدًّا وثيقًا، ثم أخذ الخنجر وهو كالنار فى سرعتها، فقال لهم: إنى قاطع رأسى به فإذا بان عن بدنى فاطلقوه من ساعته فسأضحك إذا عادت القناة برأسى إلى موضعها وتسمعوا[٩٩] قهقهة يسيرة، فعجز أهل الساحل عن أن يصنعوا مثل ذلك، ولقد أخبرنا بهذا من لا نتهمه[١٠٠]، وهو اليوم متعارف إذ كانت هذه البلاد من الهند تقرب من بلاد العرب وأخبارها متصلة بهم فى كل وقت.

ومن شأنهم إذا أخذت السنّ من رجالهم ونسائهم وضعفت حواسهم أن يطالب من صار فى هذه الحال منهم أهله بطرحه فى النار أو تغريقه فى الماء ثقة منهم بالرجعة، وسبيل موتاهم الإحراق.

جزيرة سرنديب:

وقد كان بجزيرة سرنديب وبها جبل الجوهر ومغاص اللؤلؤ وغيره يُقْدِم الرجل الهندى على دخول السوق ومعه الجزبى[١٠١]، وهو خنجر لهم عجيب الصنعة مرهف فيضرب بيده إلى أجلّ تاجر يقدر عليه ويأخذ بتلابيبه ويشهر الخنجر عليه ويخرجه عن البلد فى مجمع من الناس لا يتهيأ لهم فيه حيلة، وذلك أنه متى أريد انتزاعه منه قتل التاجر وقتل نفسه، فإذا خرج عن البلد طالبه بالفدية وتبع التاجر من يفتديه بالمال الكثير، فدام ذلك بهم مدّة من الزمان حتى ملكهم ملك أمرَ بمن فعل ذلك من الهند أن يؤخذ على أية حال كان، ففُعل ذلك، فقتل الهندى التاجر وقتل نفسه، فجرى هذا على جماعة منهم وتَلِفَتْ فيه أنفس الهند

(٩٩) وتسمعوا: صحتها وتسمعون.

(١٠٠) يلاحظ أنه بينما المسعودى ذكر فى مروجه اسم أبى زيد حسن السيرافى أكثر من مرة كأحد مصادره، فإن أبا زيد لم يذكر اسم أىٍّ من مصادره.

(١٠١) ذكره المسعودى فى مروجه باسم الجرى (١٧٩)، بينما كتبه فيران فى ترجمته الفرنسية Kris ،ورينو Kri الذى قال: إنها تكتب فى لغة الملايو كِرسى أو كريس.

وأنفس العرب، فلما وقع البأس[١٠٢] انقطع ذلك وأمن التجار على أنفسهم.

والجوهر الأحمر والأخضر والأصفر[١٠٣] مخرجه من جبل سرنديب، وهى جزيرة وأكثر ما يظهر لهم فى وقت المدود يدحرجه الماء عليهم من كهوف ومغارات ومسآيل مياه لهم عليها أرصاد للملك، وربما استنبطوه أيضا كما تُستنبط المعادن، فيخرج الجوهر ملصقا بالحجارة فيُكسر عنه.

وللملك هذه الجزيرة شريعة ومشايخ لهم مجالس كمجالس محدثينا يجتمع إليهم الهند، فيكتبون عنهم خبرا أنبيائهم وسنن شرائعهم.

وبها صنم عظيم من ذهب إبريز[١٠٤] يفرط البحريون فى مبلغ وزنه، وهياكل قد أُنفق عليها أموال عظيمة.

وبهذه الجزيرة جمع من اليهود كثير ومن سائر الملل.

وبها أيضًا ثنوية[١٠٥] والملك يبيح لكل فريق منهم ما يتشرّع به.

ومحاذى هذه الجزيرة أغباب واسعة، ومعنى الغُبّ الوادى العظيم، إذا أفرط فى طوله وعرضه وكان مصبه إلى البحر، يسير المجتازون فى هذا الغُبّ المعروف بغُبّ سرنديب شهرين وأكثر فى غياض ورياض وهواء معتدل، وفى فوهة هذا الغُبّ البحر المعروف بَهرْكَنْد، وهو نزِهُ المكان، الشاة فيه بنصف درهم، وما يشرب جمع من الرجال من الشراب المطبوخ من عسل النحل بحبّ الدادى[١٠٦] الرطب بمثل ذلك[١٠٧]، وأكثر أعمالهم القمار بالديكة والنرد، والديكة عندهم عظيمة الأجسام وافرة الصياص[١٠٨] يستعملون لها من الخناجر الصغار المرهفة ما

---

(١٠٢) وقع البأس: قوى سلطان الأمن.

(١٠٣) الجوهر الأحمر: الياقوت، والأخضر: الزمرد، والأصفر: التوباز.

(١٠٤) إبريز: نقى.

(١٠٥) ثنوية: مذهب يستمد جميع الأشياء من مبدأين، ويرفض أن يسلم بما يزيد أو ينقص عن جوهرين (الموسوعة الفلسفية المختصرة).

(١٠٦) الدادى: طبقًا لابن البيطار (ت٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) حبوب تشبه حبة الشعير، إلا أنها أطول وأخف ومُرّة الطعم.

(١٠٧) بمثل ذلك: أى بنصف درهم أيضًا.

(١٠٨) الصياص مفردها الصيصية أو الصيصة: مخلب الديك فى ساقه (المعجم الوسيط).

يشدّ على صياصيها ثم تُرسل[١٠٩]،وقمارهم فى الذهب والفضة والأرضين[١١٠] والنبات وغير ذلك، فيبلغ الديك الغالب جملة من الذهب. وكذلك لعبهم بالنرد دايم على خطر واسع[١١١]، حتى أن أهل الضعف منهم ومن لا مال له ممن يذهب إلى طلب الباطل والفتوة ربما لاعب فى أنامله فيلعب وإلى جنبه شىء قد جُعل فيه من دهن الجوز أو دهن السمسم إذ كان الزيت معدومًا عندهم، وتحته نار تحميه، وبينهما فاس صغيرة مشحوذة، فإذا غلب أحدهما صاحبه وضع يده على حجر وضرب القامر بالفأس أنملة المقمور فأبانها ووضع المقمور يده فى الدهن، وهو فى نهاية الحرارة فيكويها ولا يقطعه ذاك عن المعاودة فى اللعب، فربما افترقا وقد بطلت أناملهما جميعًا. ومنهم من يأخذ الفتيلة فينقعها فى الدهن، ثم يضعها على عضو من أعضائه ويشعل النار فيها، فهى تحترق ورائحة اللحم تفوح، وهو يلعب بالنرد لا يظهر منه جزع.

والفساد فى هذا الموضع فاش فى النساء والرجال غير محظور حتى أن تجار البحر ربما دعا الواحد منهم ابنة ملكهم فتأتيه إلى غياضهم بعلم أبيها، وكان مشايخ أهل سيراف يمنعون من الجهاز إلى هذه الناحية وخاصة الأحداث.

اليسارة بالهند:

وأمر اليسارة التى تكون ببلاد الهند وتفسيرها المطر فإنهم يدوم عليهم فى الصيف ثلاثة أشهر تباعًا ليلاً ونهارًا، لا يُمسك الشتاء عنهم بتة، وقد استعدوا قبل ذلك لأقواتهم، فإذا كانت اليسارة أقاموا فى منازلهم لأنها معمولة من خشب مكنَّسة السقوف، مظللة بحشائش لهم فلا يظهر أحد منهم إلا لمهم[١١٢]، على أن أهل الصناعات يعالجون صنايعهم فى هذه الأماكن هذه المدة، وربما عفنت أسافل أرجلهم فى هذا الوقت. وبهذه اليسارة عيشهم، وإذا لم تكن هلكوا، لأن

---

(١٠٩) ثم تُرسل: أى تترك لتهاجم بعضها بعضا.

(١١٠) الأرضين أى الأراضى.

(١١١) خطر واسع: أى رهان كبير.

(١١٢) لمهمّ: أى لأمر هام.

زراعتهم الأرز لا يعرفون غيره ولا قوت لهم سواه، إنما يكون فى هذا الوقت فى حرامات لهم طريحا لا يحتاجون إلى سقى ومعاناة، ومعنى الحرامات منابت الأرز عندهم، فإذا انكشفت السماء[113] عنهم بلغ الأرز النهاية فى الريع والكثرة، ولا يمطرون الشتاء.

أخبار أخرى عن الهند:

وللهند عبّاد وأهل علم يـُعرفون بالبراهمة، وشعراء يغْشُون الملوك، ومنجمون، وفلاسفة، وكهّان، وأهل زجر للغربان وغيرها، وبها سحرة، وقوم يظهرون التخاييل[114] ويبدعون فيها وذلك بقنوج[115]، خاصة وهو بلد عظيم فى مملكة الجرز.

وبالهند قوم يعرفون بالبيكرجيين عراة قد غطّت شعورهم أبدانهم وفروجهم، وأظفارهم مستطيلة كالحراب، إذ كانت لا يـُقص إلا ما ينكسر منها. وهم على سبيل سياحة[116] وفى عنق كل رجل منهم خيط فيه جمجمة من جماجم الإنس، فإذا اشتد به الجوع وقف بباب بعض الهند فأسرعوا إليه بالأرز المطبوخ مستبشرين به فيأكل فى تلك الجمجمة، فإذا أُشبع انصرف فلا يعود لطلب الطعام إلا فى وقت حاجته.

وللهند ضروب من الشرايع يتقربون بها زعموا إلى خالقهم - جلّ اللّه وعزّ عما يقول الظالمون علواً كبيراً - منها أن الرجل يبتنى فى طُرقهم الخان للسابلة ويقيم فيه بقالا يبتاع المجتازون منه حاجتهم، ويُقيم فى الخان فاجرة من نساء الهند يجرى عليها[117] لينال منها المجتازون وذاك عندهم مما يثابون عليه. وبالهند

(١١٣) انكشفت السماء: أى انقطع المطر وصفت.

(١١٤) التخاييل: ترجمها كل من رينو وفيران بمعنى الحيل وخفة اليد.

(١١٥) قنوج: مدينة على الفرع الشرقى لنهر الجانج بالهند، كانت يومًا مدينة كبيرة ذات نفوذ، وكانت فى وقت من الأوقات عاصمة بلهار. وطبقًا لرواية ابن بطوطة يلزم مسيرة عشرة أيام من قنوج إلى دلهى.

(١١٦) وهم على سبيل سياحة: وهم جوالون.

(١١٧) يجرى عليها: يعطيها أجراً، يتكفل بها.

قحاب يعرفون بقحاب البُدّ[118]، والسبب فيه أن المرأة إذا نذرت نذراً ووُلد لها جارية جميلة أتت بها البُدّ، وهو الصنم الذى يعبدونه، فجعلتها له، ثم اتخذت لها فى السوق بيتًا وعلّقت عليه ستراً وأقعدتها على كرسى ليجتاز بها أهل الهند وغيرهم من سائر الملل ممن يتجاوز فى دينه، فتمكن من نفسها بأجرة معلومة، وكلما اجتمع لها شىء من ذلك دفعته إلى سدنة الصنم ليُصرف فى عمارة الهيكل، والله جل وعز نحمده على ما اختار لنا وطهرنا من ذنوب الكفرة به.

فأما الصنم المعروف بالمولتان[119] وهو قريب المنصورة فإنه يُقصد من مسيرة أشهر كثيرة ويحمل الرجل منهم العود الهندى القامرونى، وقامرون بلد يكون فيه فاخر العود، حتى يأتى به إلى هذا الصنم فيدفعه إلى السدنة لبخور الصنم. ومن هذا العود ما قيمة المنا[120] منه مايتا دينار، وربما خُتم عليه فانطبع الخاتم فيه للدونقة[121]، فالتجار يتاعونه من هؤلاء السدنة.

وبالهند عبّاد فى شرايعهم يقصدون إلى الجزاير التى تحدث فى البحر فيغرسون بها النارجيل ويستنبطون بها المياه للأجر وأن يجتاز بها المراكب فتنال منها، وبعُمَان من يقصد إلى هذه الجزاير التى فيها النارجيل ومعهم آلات النجارة وغيرها، فيقطعون من خشب النارجيل ما أرادوا، فإذا جفّ قُطع ألواحا ويفْتلون من ليف النارجيل ما يخرزون به ذلك الخشب ويستعملون منه مركبا وينحتون منه أدقالا[122] وينتجون من خوصه شراعا ومن ليفه خُرابات[123] وهى القلوس عندنا، فإذا فرغوا من جميعه شُحنت المراكب بالنارجيل فقُصد بها عُمَان فبيع

---

(118) قحاب البُدّ: روانى المعبد.

(119) المولتان: كتبه المسعودى فى مروجه «المُلْتان»، وذكر أنه ثغر من ثغور المسلمين الكبار، وفيه الصنم المنسوب اسمه إلى اسم الثغر، يقصده الهنود من أقاصى بلادهم، فإذا حاولوا غزو البلد فإن ملكها المسلم يهددهم بتخريب هذا الصنم فترحل جيوشهم (ص١٤٤)، كذلك ذكره ابن بطوطة فى رحلته على أنه قاعدة بلاد السند ومسكن أمير أمرائه، ولم يذكر شيئًا عن الصنم (٢٦٨ ـ ٢٦٩).

(120) المنّ: كيل يوازى رطلين (الملاحة عند العرب، ص١٤٠).

(121) ترجمها كل من رينو وفيران: لطراوته.

(122) أدقالا: مفردها دُقل: سارية الشراع.

(123) الخرابة والقلوس القلس: حبل من ليف، حبل غليظ من حبال السفن.

وعظمت بركته ومنفعته إذ كان جميع ما يتُخذ منه غير محتاج إلى غيره(١٢٤).

بلاد الزّنج :

وبلاد الزنج واسعة وكل ما ينبت فيها من الذرة وهو أقواتهم وقصب السكر وسائر الشجر فهو أسود عندهم(١٢٥)، ولهم ملوك يغزوا(١٢٦) بعضهم بعضا، وعند ملوكهم رجال يعرفون بالمخزمين قد خُزمت أنوفهم ووضع فيها حلق ورُكّب في الحلق سلاسل، فإذا كانت الحرب تقدموا وقد أخذ بطرف كل سلسلة رجل يجذبها ويصدّه عن التقدم حتى تسفر السفراء بينهم(١٢٧)،فإن وقع الصلح، وإلا شُدّت تلك السلاسل فى أعناقهم وتركوا والحرب فلم تقم لهم قائمة ولم يزل أحدهم عن مركزه(١٢٨) دون أن يُقتل.

وللعرب فى قلوبهم هيبة عظيمة فإذا عاينوا رجلا منهم سجدوا له، وقالوا: هذا من مملكة ينبت بها شجر التمر بجلالة التمر عندهم وفى قلوبهم، ولهم الخطب وليس فى الأمم كخطبايهم بألسنتهم(١٢٩)، وفيهم من يتعبد فيستتر بجلد نمر أو جلد قرد ويأخذ بيده عصا ويقبل نحوهم فيجتمع إليه منهم جمع فيقف على رجله يومًا إلى الليل يخطب عليهم ويذكرهم بالله جلّ ذكره ويصف لهم أمور من هلك منهم. ومن عندهم تُحمل(١٣٠) النمور الزنجية وفيها حمرة وهِجانه(١٣١) ولها كبر وسعة.

جزيرة سوقطرا :

وفى البحر جزيرة تعرف بسقوطرا وبها منابت الصبر الأسقوطرىّ، وموقعها قريب من بلاد الزنج وبلاد العرب، وأكثر أهلها نصارى، والسبب فى ذلك أن إسكندر لما غلب على ملك فارس كان يكاتبه معلّمه أرسطوطاليس فيعرّفه ما وقع

(١٢٤) أى أن الربح وفير، لأن محصول النارجيل أو جوز الهند تحمله سفن مصنوعة: خشبًا وخيوطاً وحبالاً وصواريًا من خامات النارجيل نفسه، مما يوفر على العمانيين أية نفقات إضافية.

(١٢٥) هكذا تخيل مؤلف الكتاب دون استناد إلى راوية شاهد عيان.

(١٢٦) وصحتها: يغزو أو يغزون.

(١٢٧) حتى تسفر السفراء بينهم: أى حتى يتفاوض المتفاوضون بينهم.

(١٢٨) لم يزل أحدهم عن مركزه: لا يترك أحدهم مكانه.

(١٢٩) المقصود أن بينهم وعاظًا بلغاء.

(١٣٠) تحُمل: تُصدر.

(١٣١) هجانة: بياض.

عليه من الأرضين، فكتب إليه يؤكد عليه فى طلب جزيرة فى البحر تُعرف بسقوطرا، وأن بها منابت الصبر، وهو الدّوا الأعظم الذى لا تتم الأيارجات[١٣٢] إلا به، وأن الصواب أن يخرج من كان فى هذه الجزيرة ويقيم فيها من اليونانيين مَنْ يحوطها ليُحمل منها الصبر إلى الشام والروم ومصر، فبعث إسكندر فأخرج أهلها عنها وأنزل جمعا من اليونانيين فيها، وتقدّم إلى ملوك الطوايف[١٣٣] إذ كانوا عند قتله دارا الكبير طوع يده بالاحتفاظ[١٣٤] بهم فكانوا فى صيانة[١٣٥] حتى بعث الله عيسى عليه السلام فبلغ من بهذه الجزاير من اليونانية أمره فدخلوا فى جملة ما دخلت فيه الروم من التنّصر وبقاياهم بها إلى هذا الوقت مع سائر من سكنها من غيرهم.

يمين الهند :

ولم يذكر فى هذا الكتاب يعنى الكتاب الأول ما تيامن[١٣٦] من البحر عند خروج المراكب من عمان وأرض العرب وتوسطهم للبحر الكبير، وإنما شرح فيه ماتياسر[١٣٧] منها إذ كان فيه بحر الهند والصين، وفيه كان مقصد من كتب ذلك الكتاب عنه.

ففى هذا البحر الذى عن يمين الهند الخارج عن عمان بلاد الشحر وهى منابت اللبان وأرض من أراضى عاد وحِمْيَر وجـُرهم والتبابعة، ولهم ألسنة بالعربية عادية[١٣٨] قديمة لا يعرف أكثرها العرب، وليست لهم قرى، وهم فى قشف وضيق عيش إلى أن تنتهى أرضهم إلى أرض عدن وسواحل اليمن وإلى جُدّة، ومن جُدّة إلى الجار إلى ساحل الشام، ثم تفضى إلى القلزم وينقطع البحر هناك، وهو حيث يقول الله جل ذكره وجعل بين البحرين[١٣٩] حاجزًا، ثم

(١٣٢) الأيارجات: الأدوية.

(١٣٣) ملوك الطوائف: المقصود هنا الحكام المحليين.

(١٣٤) بالاحتفاظ بهم: بحمايتهم.

(١٣٥) فى صيانة: فى أمان.

(١٣٦) ما تيامن: ما وقع على اليمين، أى الغرب فى خرائط العصور الوسطى.

(١٣٧) ما تياسر: المقصود هنا شرقا.

(١٣٨) عادية: نسبة إلى عاد.

(١٣٩) أى البحر الأحمر والبحر المتوسط. سورة النمل، آية ٦٠.

ينعرج البحر من القلزم على أرض البربر، ثم يتصل بالجانب الغربى الذى يقابل أرض اليمن حتى يمر بأرض الحبشة التى تُجلب جلود النمور البربرية منها، وهى أحسن الجلود وأنقاها، والزّيلع وفيها العنبر، والذُّبل وهو ظهور السلاحف.

ومراكب أهل سيراف إذا وصلت فى هذا البحر المتيامن عن بحر الهند فصارت إلى جُدّة أقامت بها ونقل ما فيها من الأمتعة التى تحمل إلى مصر فى مراكب القلزم إذ كان لا يتهيأ لمراكب السّيرافيين سلوك ذلك البحر لصعوبته وكثرة جباله النابتة فيه، وأنه لا ملوك فى شىء من سواحله ولا عمارة، وأن المركب إذا سلكه احتاج فى كل ليلة إلى أن يطلب موضعًا يستكنّ فيه خوفًا من جباله، فيسير النهار ويقيم الليل، وهو بحر مظلم كريه الروايح لا خير فى بطنه ولا ظهره، وليس كبحر الهند والصين الذى فى بطنه اللولو والعنبر وفى جباله الجوهر ومعادن الذهب وفى أفواه دوابه العاج وفى منابته الآبنوس والبقّم والخيزران وشجر العود والكافور والجوزبوا[١٤٠] والقرنفل والصندل وسائر الأفواه الطيبة[١٤١] الذكية، وطيوره الفقاغى يعنى الببغاوات والطواويس وحرشات[١٤٢] أرضه الزّباد وظباء المسك، ومالا يحصيه أحد لكثرة خيره.

العنبر :

فأما العنبر وما يقع منه إلى سواحل هذا البحر فهو شىء تقذفه الأمواج إليه، ومبدأوه[١٤٤] من بحر الهند على أنه لا يُعرف مخرجه، غير أن أجوده ما وقع إلى بربر أو حدود بلاد الزنج والشِّحْر وما والاها وهو البيض المدور الأزرق، ولأهل هذه النواحى نُجُبٌ[١٤٥] يركبونها فى ليالى القمر ويسيرون بها على سواحلهم قد ريضت[١٤٦] وعرفت طلب العنبر على الساحل، فإذا رآه النجيب برك بصاحبه

(١٤٠) الجوزبوا: جوز الطيب.
(١٤١) أفواه: توابل الطعام.
(١٤٢) حرش الصيد، أى هيجه ليصطاده، والمقصود هنا الحيوان الذى يصطاد.
(١٤٣) الزّباد: حيوان ثديى قريب من السنانير له كيس عطر قريب من الشرج يفرز مادة دهنية تستخدم فى الشرق أساسًا للعطور (المعجم الوسيط).
(١٤٤) صحتها: مبدؤه.
(١٤٥) نجب ونجائب، ومفردها نجيب ونجيبه، أى خيار الإبل.
(١٤٦) ريضت: دُرِّبت.

فأُخذْ. ومنه ما يوجد فوق البحر ويزن وزنًا كثيرًا، وربما كان كهيئة الثور ودونه، فإذا رآه الحوت المعروف بالتّال ابتلعه، فإذا حصل فى جوفه قتله وطفا الحوت فوق الماء. وله قوم يراعونه فى قوارب قد عرفوا الأوقات التى يوجد فيها هذه الحيتان المبتلعة العنبر، فإذا عاينوا منها شيئًا اجتذبوه إلى الأرض بكلاليب حديد فيها حبال متينة تنشب فى ظهر الحوت، فيشقوا عنه ويخرجوا العنبر منه فما كان يلى بطن الحوت، فهو المَنْدْ الذى فيه سهوكة(١٤٧) وسكته موجودة عند العطارين بمدينة السلام والبصرة، وما لم تصل إليه سهوكة الحوت كان نقيّا جدّا(١٤٨) وهذا

---

(١٤٧) سهوكة: كريه الرائحة.

(١٤٨) أورد المسعودى روايات مماثلة عن العنبر فى مروجه (ص١٢٩). وواضح أن القدماء لم يكونوا يعرفون أن العنبر إفراز عضوى من الحيتان ـ مثل اللؤلؤ فى الصدف والمسك فى الظباء وحصى المرارة فى الإنسان والحيوان ـ فهو يتكون فى أمعاء نوع من الحيتان الكبيرة التى تعيش فى البحار الحارة على الأغلب (حديث السندباد القديم، ص١٥٧).. فهذا سليمان التاجر يعتقد أنه «ينبت فى قعر البحر نباتا، فإذا اشتد هيجان البحر قذفه من قعره مثل الفُطر والكمأة» (ص ٣٩ من هذا الكتاب) وردّد كلاما مشابها أكثر من رحالة وجغرافى عربى، مثل: «الشريف الإدريسى» (٤٩٢ ـ ٥٩٩هـ / ١١٠٠ ـ ١١٦٥م) فى «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق»، والقزوينى (٦٠٠ ـ ٦٨٢هـ/ ١٢٠٤ ـ ١٢٨٣م) فى «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» (ص٩٢). أما النويرى (٦٧٦ ـ ٧٢٢هـ/ ١٢٧٨ ـ ١٣٢٢م) فى «نهاية الأرب فى فنون الأدب» فينقل عن ابن واضح اليعقوبى ـ متفقًا مع من سبقوه فى اعتقادهم ـ أن كل ما بين الحوت والعنبر من صلة هو أن الحوت يبتلعه مما يؤدى إلى موته ليطفو على سطح البحر فيسحبونه لاستخراج العنبر منه. ثم يستطرد ابن اليعقوبى قائلاً: إن جماعة من أهل العلم بالعنبر قالوا له إنه يوجد بجبال نائية فى قرار البحر مختلفة الألوان تقتلعه الرياح وشدة اضطراب البحر فى الأشتية الشديدة، فلذلك لا يكاد يخرج فى الصيف (عن «حديث السندباد القديم» ص٦٥. ولم تتحدد الصلة الحقيقية بين الحيتان والعنبر حتى منتصف القرن التاسع عشر، حين جاءت بنت Bennett فى كتابه «رحلة حول العالم لصيد البلينه» فقال: العنبر إفراز مرضى فى أمعاء البال ـ والبلّينه والبال من أسماء الحيتان ـ أصله إما من المعدة أو من قنوات المرارة، وهو شبيه فى طبيعته بحصى كيس الصفراء.. وما يوجد منه طافيا على وجه البحر هو ما قذف به البال حيا، أو ما تخلص منه ميتا بعد تعفن الجثة (المرجع السابق، ص١٧٨).

ويفرقون فى الإنجليزية بين كلمتين لهما لفظ واحد فى العربية العنبر Amber بمعنى الكهرمان، وهو مادة راتينجية من حفريات أفرزتها أشجار صنوبرية عاشت فى عصور جيولوجية قديمة يتفاوت لونها ما بين الأصفر والبنى ،وهو يصقل لصنع أشياء صغيرة للزينة كحبات العقود وغيرها، وتتخلل هذه الحبات فقاعات هوائية وشظايا خشبية وأوراق أشجار متحجرة، وأنقاها ما كان شفافا، وباحتكاك العنبر مع مواد كالأقمشة والورق يتولد نوع من الكهرباء الإستاتيكية ومصدره الرئيسى الساحل الألمانى ببحر البلطيق. أما العنبر Ambergris فهو مادة شمعية تفرزها أمعاء نوع ضخم من الحيتان قد يبلغ طوله نحوا من ستين قدما ضخم الرأس وله أسنان (الحوت الاسبرماسيتى)، ويوجد بكميات على شواطئ البحار الاستوائية، وتتراوح ألوانه ما بين الأصفر والرمادى والأسود والمبرقش، وكان القدماء يستخدمونه فى البخور والعطور أو كمثبت فى صناعتها، ولارتفاع سعره حلّت المثبتات الصناعية محله الآن.

الحوت المعروف بالبال ربما عُمل من فقار ظهره كراسى يقعد عليها الرجل ويتمكن. وذكروا أن بقرية من سيراف على عشرة فراسخ تعرف بالتابن بيوت عادية لطاف سقوفها من أضلاع هذا الحوت، وسمعت من يقول إنه وقع فى قديم الأيام إلى قرب سيراف منه واحدة فقصد للنظر إليها فوجد قوما يصعدون إلى ظهرها بسلم لطيف. والصيادون إذا ظفروا بها طرحوها فى الشمس وقطعوا لحمها وحفروا له حفرًا يجتمع فيها الوَدَك[149]، ويُغرف من عينها إذا اذابتها الشمس الوَدَك بالحرارة، ويُجمع فيُباع على أرباب المراكب ويُخلط بأخلاط لهم يُمسح بها مراكب البحر يُسد به خرزها، ويُسد أيضًا ما ينفتق من خرزها فيباع ودك هذا الحوت بجملة من المال.

اللؤلؤ :

بدو خلق اللؤلؤ بلطيف تدبير الله تبارك اسمه وهو عز وجل يقول: «سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون[150]». . فاللؤلؤ يبتدى فى مثل قدر الأنْجدانة وعلى لونها وفى هيئتها وصغرها وخفّتها ورقّتها وضعفها فيطير على وجه الماء طيرانًا ضعيفًا ويسقط على جوانب مراكب الغاصة ثم يشتدّ على الأيام ويعظم ويستحجر، فإذا ثقل لزم قعر البحر ويغدوا[151] مما الله أعلم به وليس فيه إلا لُحمة حمراء كمثل اللسان فى أصله ليس لها عظم ولا عصب ولا فيها عرق، وقد اختلفوا فى بدء اللؤلؤ، فقال قوم: الصّدف إذا وقع المطر ظهر على وجه البحر وفتح فاه حتى يقطر فيه من المطر فيصير حبّا، وقال آخرون: إنه يتولد من الصدفة نفسها وهو أصح الخبرين، لأنه ربما وجد فى الصدفة وهو نابت لم ينقلع فيُقلع، وهو الذى تسميه تجار البحر اللؤلؤ القلع، والله أعلم[152].

(١٤٩) الوَدَك: الدسم أو الدهن الذى يستخرج منه (المعجم الوسيط).

(١٥٠) سورة يس، آية ٣٦.

(١٥١) وصحتها: يغذو، يقال غذا فلانا الطعام، أى أطعمه إياه.

(١٥٢) مما يلفت النظر أن الرحالة والجغرافيين العرب عرفوا ثلاثة إفرازات عضوية لها قيمتها فى عالم الترف هى: المِسْك إفراز بعض أنواع الظباء، والعنبر إفراز بعض أنواع الحيتان، واللؤلؤ إفراز بعض أنواع الصدف. وكانت أقرب معلوماتهم إلى الصحة عن المسك إفراز الحيوان الذى لا يعيش فى منطقتهم، بينما اختلط بالخرافة والأسطورة حديثهم عن العنبر - على نحو ما رأينا فى هذا الكتاب صفحات ٩٩-١٠١ - واللؤلؤ الذى كان مصدرًا أساسيًا من مصادر دخلهم، واشتهرت به مغاصات، مثل: مغاصات البحرين=

قصة الثعلب واللؤلؤة :

ومن عجايب ما سمعنا من أبواب الرزق أن أعرابيًا ورد البصرة فى قديم الأيام ومعه حبّة لؤلؤ تساوى جملة مال فصار بها إلى عطّار كان يألفه فأظهرها له وسايله عنها وهو لا يعرف مقدارها فأخبره أنها لؤلؤة، فقال: وما قيمتها؟ قال: ماية درهم، فاستكثر الأعرابى ذلك، وقال: هل أحد يبتاعها منى بما قلت؟ فدفع له العطار ماية درهم، فابتاع بها ميرة لأهله وأخذ العطار الحبة فقصد بها مدينة السلام[١٥٣] فباعها بجملة من المال، واتسع العطار فى تجارته فذكر العطار أنه سأل الأعرابى عن سبب اللؤلؤة، فقال: مررت بالصّمان وهى من أرض البحرين بينها وبين الساحل مُديدة قريبة فرأيت فى الرمل ثعلبًا ميتًا على فيه شىء قد أطبق عليه، فنزلت فوجدت شيئـًا كمثل الطبق يلمع جوفه بياضًا، ووجدت هذه المدحرجة فيه فأخذتها، فعلم أن السبب فى ذلك خروج الصدفة إلى الساحل تستنشق الريح ـ وذلك من عادة الصدف ـ فمر بها الثعلب فلما عاين اللحمة فى جوفها، وهى فاتحة فاها وثب بسرعته فأدخل فاه فى الصدف وقبض على اللحمة فأطبقت الصدفة على فيه، ومن شأنها إذا أطبقت على شىء وأحسّت بيد تلمسها

= وعُمان ونظرية تكوين اللؤلؤ من المطر ترجع إلى العصور القديمة، فمن بين الذين رددوها بلينيوس أوبلينى (٧٩ ق.م ـ ٢٣ ق.م) فى كتابه «التاريخ الطبيعى». كما رددها أكثر من رحالة وجغرافى عربى كالمسعودى الذى يقول فى مروجه: «تنازع الناس فى تكوينه: من ذهب منهم إلى أن ذلك من المطر، ومن ذهب منهم إلى أن ذلك من غير المطر» (ص١٢٨). أما القزوينى فى «عجائب المخلوقات» والدمشقى فى كتابه «نخبة الدهر» فيرجعان تكوين اللآلئ إلى المطر أو رشاش ماء البحر، بينما يعلن الإدريسى في كتابه «نزهة المشتاق» فى ثقة: «أن هذه المسائل ثابتة لا يشك فى شأنها أحد من سكان البلد». ويعلق د. حسين فوزى على نظرية إرجاع أصل اللؤلؤ إلى المطر بأنه تفسير شعرى جميل يوافق ما فى اللآلئ من سحر خلاب: أن ترى فى الدرر الغالية أشعة الفجر الصبوح، وقطرات الندى الطاهر (حديث السندباد، ص١٤١). ويبدو من كلام أبى زيد هنا أنه غير مصدق لحكاية قطرات الندى بدليل قوله: «وقال آخرون إنه يتولد من الصدفة نفسها وهو أصح الخبرين».

والمعروف الآن أن اللؤلؤ يتكون نتيجة نفاذ جسم غريب داخل القباء ـ وهو الغشاء الذى يغطى كالعباءة الحيوان الصدفى الرخو فاصلاً بينه وبين أصدافه ـ فيحيطه القباء بمادة صدفية يفرزها فى طبقات هالية، (أى على شكل هالات). فإذا تكونت من هذه المادة نتوءات لاصقة عرفت باسم اللالـئ الناقصة أو القلع. أما إذا تكونت حبات مستديرة غير متصلة بالصدفة فصغيرها هو اللؤلؤ وكبيرها هو الدر، لكن اللالئ، والدرر الغالية لا تتكون غالبًا إلا فى نوع معين من المحارات اسمه Pintada margaritifera (حديث السندباد القديم، ص١٣٧).

(١٥٣) مدينة السلام، أى بغداد.

لم تفتح فاها بحيلة حتى تشق من آخرها بالحديد ضنًا منها باللؤلؤ وصيانة له كصيانة المرأة لولدها، فلما أخذت بنفس الثعلب أمعن فى العدو يضرب بها الأرض يمينًا وشمالاً إلى أن أخذت بنفسه فمات وماتت(١٥٤) ،وظفر بها الأعرابى فأخذ ما فيها، وساقه الله إلى العطار فصارت له.

ملوك الهند :

وملوك الهند تلبس الأقراط من الجوهر النفيس فى آذانها المركب فى الذهب وتضع فى أعناقها القلايد النفيسة المشتملة على فاخر الجوهر الأحمر والأخضر، واللؤلؤ ما يعظم قيمته ويجل مقداره، وهو اليوم كنوزهم وذخايرهم وتلبسه قوادهم ووجوههم، والريس منهم يركب على عنق رجل (١٥٥) منهم وعليه فوطة قد استتر بها وفى يده شىء يعرف بالجِتْره، وهى مظلة من ريش الطواويس يأخذها بيده فيتقى بها الشمس وأصحابه محدقون به، ومنهم صنف لا يأكل اثنان منهم فى غضارة واحدة ولا على مائدة واحدة يجدون ذلك عيبًا فاحشًا، فإذا وردوا سيراف فدعاهم وجه من وجوه التجار وكانوا ماية نفس أو دونها أو فوقها احتاج أن يضع بين يدى كل رجل منهم طبقًا فيه ما يأكله لا يشاركه فيه سواه. وأما ملوكهم فى بلادهم ووجوههم فإنه يتخذ لهم فى كل يوم موايد يُسف(١٥٦) خوص النارجيل سفًا ويعمل منه كهيئة الغضار والصحاف، فإذا حضر الغدا أكلوا

(١٥٤) فى كتابه «حديث السندباء القديم» يعلق الدكتور حسين فوزى شارحًا: ليس ببعيد أن يحدث ما حدث للثعلب، إن لم يكن من المحارة اللؤلؤية فمن أنواع المحار الكبرى، كالبُصر أو السرنُباق Tridacne gigas ولهذا النوع صدفتان سميكتان عظيمتا الجرم، متعرجتا الحواف، إذا انطبقتا تداخل حديداب صدفة فى تقعر الصدفة الأخرى، وانضمت حواف الصدفتين انضماما وثيقا، بفعل عضلات قوية لدرجة يمكن معها فهم ما حدث للثعلب. وقد توجد لآلئ فى البُصْر ببعض المواضع، ويعيش هذا المحار فى مياه ضحل تنحسر عنها المياه فى الجزر. لهذا يحتمل أن تكون المحارة التى عثر عليها الأعرابى من نوع البُصْر، إنما الخطأ الواضح فى حكاية أبى زيد حسن وفى أمثالها، هو تفسير قفل الصدفتين بحنو المحارة على ما بها من لؤلؤ. وقد رأينا أن اللؤلؤ ظاهرة مرضية، أو بالأولى عملية دفاعية ضد جسم غريب نفذ إلى داخل المحارة. إنما تقفل المحارة صدفتيها دفاعًا عن كيانها، لا عن لؤلؤها. وعضلات الحيوانات ذات الأصداف قوية، تلزم الإنسان بشىء من المجهود، بل وباستعمال سلاح، لفتحها، وقد تتكسر الصدفة كسرأ قبل أن تفتح (ص١٥٣).

(١٥٥) الأرجح أن المقصود على محفة.

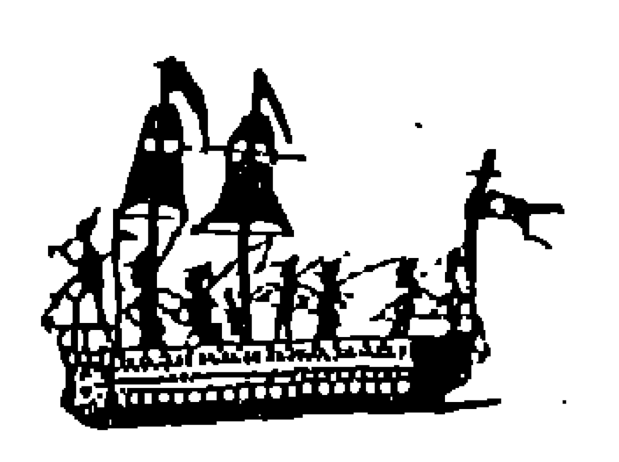
(١٥٦) سفّ الحصير: أى نسجه بالأصابع (المعجم الوسيط).

الطعام فى ذلك الخوص المسفوف، فإذا فرغوا من غدايهم رمى بتلك المائدة والغضار والمسفوف من الخوص ما بقى من الطعام إلى الماء واستأنفوا من غدهم مثله.

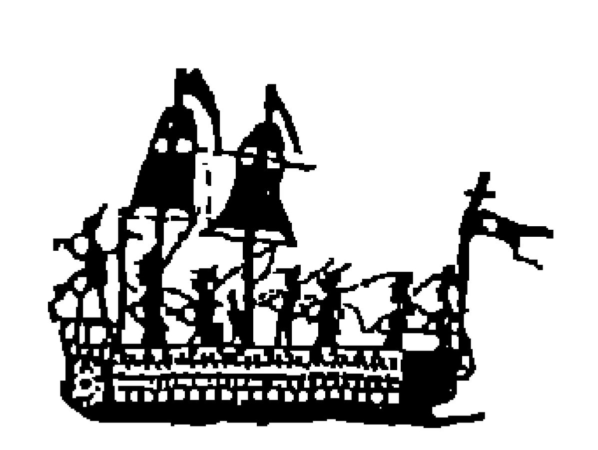
وكان يُحمل إلى الهند فى القديم الدنانير السندية فيباع الدينار بثلاثة دنانير وما زاد، ويُحمل إليهم الزمرد الذى يرد من مصر مركبا فى الخواتيم مصونًا فى الحقاق(١٥٧)، ويُحمل البسد وهو المرجان وحجر يقال له الدهنج ثم تركوه، وأكثر ملوكهم يظهرون نساءهم إذا جلسوا لمن دخل إليهم من أهل بلدهم وغيرهم لا يحجبن عن النظر إليهن.

فهذا أجمل ما لحقه الذكر فى ذلك الوقت على سعة أخبار البحر، مع التجنّب لحكاية شىء مما يكذّب فيه البحريون ولا يقوم فى نفس المرء صدقه، والاقتصار من كل خبر على ما صح منه وإن قلّ أولى.

والله الموفق للصواب والحمد لله رب العالمين وصلواته على خيرته من خلقه محمد وآله أجمعين، وهو حسبنا ونعم الناصر والمعين. (قوبل بالمتنسخ منه فى صفر سنة ٥٩٣ هـ) . . والله الموفق.



(١٥٧) حقاق وأحقاق وحقوق مفردها حُقّ: وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما، علبة. (ولقد كان فى مصر منجم للزمرد على ساحل البحر الأحمر).



□ غلاف الترجمة الفرنسية لجان سوفاجيه عام ١٩٤٨م

LES CLASSIQUES DE L'ORIENT

VOYAGE

DU

MARCHAND ARABE SULAYMÂN EN INDE ET EN CHINE

RÉDIGÉ EN 851

SUIVI DE REMARQUES

PAR

ABŪ ZAYD HASAN

(vers 916)

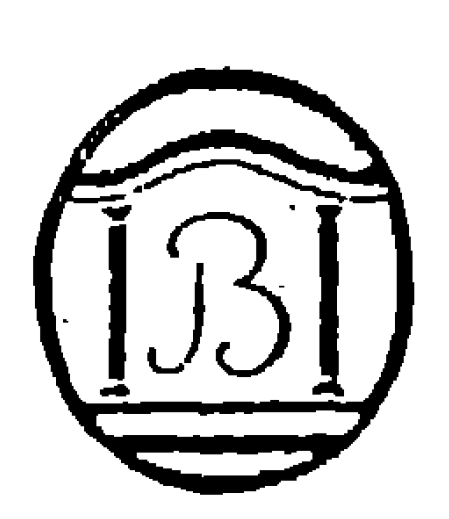
TRADUIT DE L'ARABE AVEC INTRODUCTION, GLOSSAIRE ET INDEX

par

GABRIEL FERRAND

Ministre plénipotentiaire

Bois dessinés et gravés par Andrée KARPELÈS

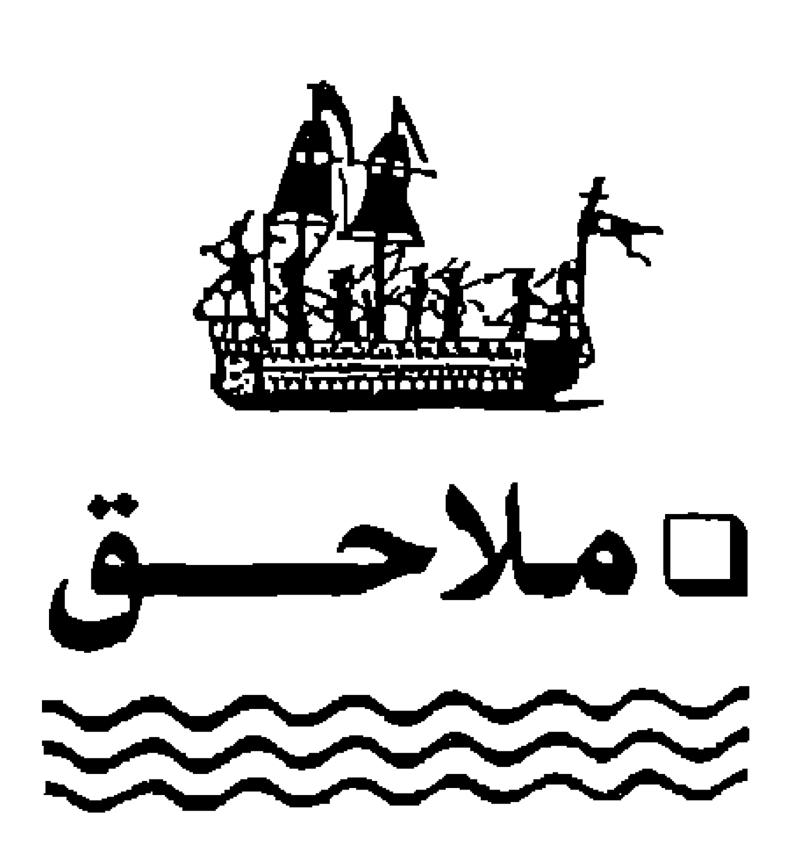


ÉDITIONS BOSSARD

43, RUE MADAME, 43

PARIS

1922


ملاحق

أولاً: من «مروج الذهب» للمسعودى :

والهند لا تملّك الملك عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة. ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلا فى كل برهة من الزمان معلومة. ويكون ظهورها للنظر فى أمور الرعية، لأن فى نظر العوام عندها إلى ملوكها خرقًا لهيبتها، واستخفافًا بحقها. والرياسات عند هؤلاء لا تجوز إلا بالتخير، ووضع الأشياء مواضعها من مراتب السياسة.

قال المسعودى: ورأيت فى بلاد سرنديب (وهى جزيرة من جزائر البحر) أن الملك من ملوكهم إذا مات صُير على عجلة قريبة من الأرض صغيرة البكرة معدّة لهذا المعنى، وشعره ينجر على الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه، وتنادى: أيها الناس، هذا ملككم بالأمس قد ملككم وجاز فيكم حكمه. وقد صار أمره إلى ما ترون من ترك الدنيا، وقبض روحه ملك الموت، والحى القديم الذى لا يموت فلا تغتروا بالحياة بعده.. وتقول كلامًا هذا معناه من الترهيب والتزهيد فى هذا العالم، ويطاف به كذلك فى جميع شوارع المدينة، ثم يُفصل أربع قطع ـ وقد هيئ له الصندل والكافور وسائر أنواع الطيب ـ فيحرق بالنار، ويذر رماده فى الرياح.

وكذا فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصهم، لغرض يذكرونه، ونهج يتيممونه المستقبل من الزمان.

والملك مقصور على أهل بيت لا ينتقل عنهم إلى غيرهم، وكذلك بيت الوزراء، والقضاة، وسائر أهل المراتب، لا تغير ولا تبدل.

والهند تمنع من شرب الشراب، ويعنفون شاربه، لا على طريق التدين، ولكن تنزهًا عن أن يوردوا على عقولهم ما يغشيها، ويزيلها عما وُضعت له فيهم. وإذا صح عندهم عن ملك من ملوكهم شربه استحق الخلع عن ملكه، إذ كان لا يتأتى له التدبير والسياسة مع الاختلاط.

وربما يسمعون السماع والملاهى. ولهم ضروب من الآلات مطربة تفعل فى

الناس أفعالاً مرتبة من ضحك وبكاء. وربما يسقون الجوارى فيطربْن بحضرتهم، فتطرب الرجال لطرب الجوارى.

وللهند سياسات كثيرة قد أتينا على ذكر كثير منها، ومن أخبارهم وسيرهم فى كتابنا «أخبار الزمان» وفى الكتاب الأوسط، وإنما نذكر فى هذا الكتاب لمعا. (ص٧٣)

ويقطع هذا البحر (الزنج) السيرافيون. وقد ركبت أنا هذا البحر من مدينة سنجار، من بلاد عُمان (وسنجار قصبة[١] بلاد عمان) مع جماعة من نواخذة السيرافيين. وهم أرباب المراكب، مثل: محمد بن الريدوم السيرافى، وجوهر بن أحمد، وهو المعروف بابن سيرة. وفى هذا البحر تلف ومن كان معه فى مركبه.

وآخر مرة ركبت فيه فى سنة أربع وثلثمائة من جزيرة قنبلو إلى مدينة عمان، وذلك فى مركب أحمد وعبد الصمد أخوى عبد الرحيم بن جعفر السيرافى بميكان، وهى محلة من سيراف، وفيه غرقا فى مركبهما وجميع من كان معهما. وكان ركوبى فيه أخيرًا والأمير على عمان أحمد بن هلال بن أخت القيتال.

وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن، وأصابنى فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة، فلم أشاهد أهول من بحر الزنج الذى قدمنا ذكره.

سمك الأفال:

وفيه السمك المعروْف بأفال، طول السمكة نحو من أربعمائة ذراع بالذراع العمرية، وهى ذراع ذلك البحر. والأغلب من هذا السمك طول مائة ذراع.

وربما يهز البحر فيُظهر شيئًا من جناحه، فيكون كالقلع العظيم، وهو الشراع.

وربما يظهر رأسه، وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء فى الجو أكثر من ممر السهم.

والمراكب تفزع منه فى الليل والنهار، وتُضرب له بالدبادب والخشب لينفر من

(١) قصبة، أى عاصمة.

ذلك. ويحشر بأجنحته وذنبه السمك إلى فمه، وقد فغر فاه، وذلك السمك يهوى إلى جوفه جريا.

فإذا بغت هذه السمكة بعث الله عليها سمكة نحو الذراع تدعى اللشك فتلصق بأصل أذنها فلا يكون لها منها خلاص، فتطلب قعر البحر، وتضرب بنفسها حتى تموت، فتطفو فوق الماء، فتكون كالجبل العظيم.

وربما تلتصق هذه السمكة المعروفة باللشك بالمركب فلا يدنو الأفال مع عظمتها من المركب، ويهرب إذا رأى السمكة الصغيرة، إذ كانت آفة له وقاتلته.

آفة التمساح:

وكذلك التمساح يموت من دويبة تكون فى ساحل النيل وجزائره. وذلك أن التمساح لا دبر له وما يأكله يتكون فى بطنه دودا. وإذا آذاه ذلك الدود خرج إلى البر فاستلقى على قفاه فاغراً فاه، فيقيض الله إليه طير الماء كالطيطوى والحصافى وغير ذلك من أنواع الطيور، وقد اعتادوا ذلك منه، فيأكل ما ظهر فى جوفه من ذلك الدود، وتكون تلك الدويبة قد كمنت فى الرمل تراعيه، فتدب إلى حلقه، وتصير فى جوفه، فيخبط بنفسه فى الأرض، فيطلب قعر النيل حتى تأتى الدويبة على حشوة جوفه ثم تخرق جوفه وتخرج. وربما يقتل نفسه قبل أن تخرج، فتخرج بعد موته.

وهذه الدويبة تكون نحوا من ذراع على صورة ابن عرس، ولها قوائم شتى ومخالب.

وفى بحر الزنج أنواع من السمك بصورة شتى. ولولا أن النفوس تنكر مالم تعرفه وتدفع مالم تألفه، لأخبرنا عن عجائب هذه البحار، وما فيها من الحيتان والدواب، وغير ذلك من عجائب المياه والجماد.

عود إلي البحر الحبشى:

فلنرجع الآن إلى ذكر تشعب مياه هذا البحر وخلجانه، ودخوله فى البر، ودخول البر فيه، فنقول: إن خليجًا آخر[٢] يمتد من هذا البحر الحبشى فينتهى

(٢) يقصد البحر الأحمر.

إلى مدينة القلزم[٣] من أعمال مصر، وبينها وبين فسطاط مصر ثلاثة أيام. وعليه مدينة أيلة والحجاز وجدة واليمن. وطوله ألف وأربعمائة ميل، وعرض طرفيه مائتا ميل، وهو أقرب المواضع من عرضه، وعرضه فى الوسط سبعمائة ميل، وهو أكثر العرض فيه.

ويلاقى ما ذكرناه من الحجاز وبلاد أيلة من غربيه من الساحل الآخر من هذا الخليج بلاد العلاقى وبلاد العيذاب من أرض مصر وأرض البجة، ثم أرض الحبشة والأحابش والسودان، إلى أن يتصل ذلك بأقاصى أرض الزنج وأسافلها، فيتصل إلى بلاد سفالة من أرض الزنج.

ويتشعب من هذا البحر[٤] خليج آخر، وهو بحر فارس، وينتهى إلى بلاد الأبلة والخشبات وعبادان من أرض البصرة. وعرضه فى الأصل خمسمائة ميل، وطول هذا الخليج ألف وأربعمائة ميل، وربما يصير عرض طرفيه مائة وخمسين ميلا.

وهذا الخليج مثلث الشكل ينتهى أحد زواياه إلى بلاد الأبلة. وعليه مما يلى المشرق ساحل فارس من بلاد دورق الفرس (وماهر بان) ومدينة حسان، وإليها تضاف الثياب الحسانية، ومدينة نجيرم ببلاد سيراف. ثم بلاد ابن عمارة، ثم ساحل كرمان، وهى بلاد هرموز، وهرموز مقابلة لمدينة سنجار من بلاد عُمان.

ثم يلى ساحل كرمان ويتصل به على ساحل هذا البحر بلاد مكران، وهى أرض الخوارج الشراة. وهذه كلها أرض نخل. ثم ساحل السند، وفيه مصب نهر مهران، وهناك مدينة الديبل. ثم يكون مارًا متصلاً بساحل الهند إلى بلاد بروض، وإليها يضاف القنا البروضى، برًا متصلاً إلى أرض الصين ساحلاً واحدًا.

ويقابل ما ذكرنا من مبدأ ساحل فارس ومكران والسند بلاد البحرين وجزائر قطر وشط بنى جزيمة وبلاد عُمان وأرض مهرة إلى رأس الجمجمة إلى أرض الشِّحر والأحقاف. وفيه جزائر كثيرة، مثل: جزيرة خارك، وهى بلاد جنابة، لأن خارك مضافة إلى جنابة، وبينها وبين البر فراسخ وفيها مغاص اللؤلؤ المعروف بالخاركى.

---

(٣) السويس حاليًا.

(٣)يقصد : المحيط الهندى.

وجزيرة أوال فيها بنو معن وبنو مسمار وخلائق كثيرة من العرب بينهما وبين مدن ساحل البحرين نحو يوم، بل أقل من ذلك، وفى ذلك الساحل مدينة الزارة والعقل والقطيف من ساحل هجر.

ثم بعد جزيرة أوال جزائر كثيرة، منها جزيرة لافت، وتدعى جزيرة بنى كاوان. وقد كان افتتحها عمرو بن العاص، وفيها مسجده إلى هذه الغاية. وفيها خلق من الناس وقرى وعمارة متصلة.

وتقرب هذه الجزيرة إلى جزيرة هنجام، ومنها يستسقى أرباب المراكب الماء. ثم الجبال المعروفة بكسير وعوير وثالث ليس فيه خير. ثم الدردور المعروف بدردور مسندم، ويكنيه البحريون بأبى جهرة.

وهذه مواضع من البحر، وجبال سود ذاهبة فى الهواء لا نبات عليها ولا حيوان، يحيط بها مياه من البحر، عظم قعرها، وأمواج متلاطمة تجزع منها النفوس إذا أشرفت عليها.

وهذه المواضع من بلاد عمان وسيراف لابد للمراكب من الجواز عليها والدخول فى وسطها، فتخطئ وتصيب. وهذا البحر هو خليج فارس، ويعرف بالبحر الفارسى، عليه ما وصفنا من البحرين وفارس والبصرة وكرمان وعمان إلى رأس الجمجمة. وبين هذا الخليج وخليج القلزم أيلة والحجاز واليمن، ويكون بين الخليجين من المسافة ألف وخمسمائة ميل، وهى داخلة من البر فى البحر، والبحر يطيف بها من أكثر جهاتها على ما وصفنا.

فهذا بحر الصين والهند وفارس وعمان والبصرة والبحرين واليمن والحبشة والحجاز والقلزم والزنج والسند، ومن فى جزائره، ومن قد أحاط به من الأمم الكثيرة التى لا يعلم وصفهم ولا عددهم إلا من خلقهم سبحانه وتعالى. ولكل قطعة منه اسم يفردها من غيرها، والماء واحد متصل غير منفصل.

وفى هذا البحر مغاصات الدر واللؤلؤ، وفيه العقيق والبادبيج، وهو نوع من البجادى، وأنواع الياقوت والماس والسُّنْباذج (٥). وفيه معادن ذهب وفضة نحو

---

(٥) حجر مِسَنّ (المنجد).

بلاد كلة وسريرة، وحوله معادن حديد مما يلى بلاد كرمان، ونحاس بأرض عمان. وفيه أنواع الطيب والأفاويه والعنبر وأنواع الأدوية والعقاقير والساج والخشب المعروف بالدارزنجى والقنا والخيزران. (صفحات ٩٤ ـ ٩٦).

وليس تعرف التنانين فى البحر الحبشى، ولا فى شىء من خلجانه من حيث وصفنا فى نهاياته،وأكثرها يظهر مما يلى بحر اوقيانوس.

التنين وآراء الناس فيه:

وقد اختلف الناس فى التنين: فمنهم من رأى أنه ريح سوداء تكون فى قعر البحر فتظهر إلى النسيم، وهو الجو، فتحلق السحب كالزوبعة. فإذا صارت من الأرض واستدارت وأثارت معها الغبار ثم استطالت فى الهواء ذاهبة الصعداء، توهم الناس أنها حيات سود قد ظهرت من البحر لسواد السحاب، وذهاب الضوء، وترادف الرياح.

ومنهم من رأى أنها دواب تتكون فى قعر البحر، فتعظم وتؤذى دواب البحر، فيبعث الله عليها السحاب والملائكة فيخرجونها من بينها. وأنها على صورة الحية السوداء لها بريق وبصيص، لا تمر بمدينة إلا أتت على مالا يقدر عليه من بناء عظيم أو شجر أو جبل، وربما تتنفس فتحرق الشجرة الكبيرة، فيلقيه السحاب فى بلد يأجوج ومأجوج، ويمطر السجاب عليهم، فيقتل التنين، فمنه يتغذى يأجوج ومأجوج. وهذا القول يعزى إلى ابن عباس. (ص١٠٦)

بعض عادات الصين:

وأهل الصين شعوب وقبائل كقبائل العرب وأفخاذها وتشعبها فى أنسابها، ولهم مراعاة لذلك وحفظ له. وينسب الرجل منهم إلى خمسين أبًّا إلى أن يتصل بعابور، وأكثر من ذلك وأقل. ولا يتزوج أهل كل فخذ من فخذهم، مثال ذلك: أن يكون الرجل من مضر فيتزوج من ربيعة، أو من ربيعة فيتزوج من مضر، أو من كهلان فيتزوج فى حمير، أو من حمير فيتزوج من كهلان. ويزعمون أن فى ذلك صحة النسل وقوام البنية، وأنه أصلح للبقاء، وأتم للعمر، وأسبابًا يذكرونها نحو ما ذكرنا.

فلم تزل أمور الصين مستقيمة فى العدل على حسب ما جرى به الأمر فيما سلف من ملوكهم إلى سنة أربع وستين ومائتين. فإنه حدث فى الملك أمر زال به النظام، وانقضت به الأحكام والشرائع، ومنع من الجهاد إلى وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة):

وهو أن نابغًا نبغ فيهم من غير بيت الملك كان فى بعض مدائن الصين يقال له يانشو. وكان شريرًا يطلب الفتنة، ويجتمع إليه أهل الدعارة والشر. فلحق الملك وأرباب التدبير غفلة عنه، لخمول ذكره، وأنه ممن لا يبالى به. فاشتد أمره، ونما ذكره، وكثر عتوه، وقويت شوكته، وقطع أهل الشر المسافات نحوه. وعظم جيشه، فسار من موضعه، وشن الغارات على العمائر حتى نزل مدينة خانقوا.

وهى مدينة عظيمة على نهر عظيم أكبر من دجلة يصب إلى بحر الصين. وبين هذه المدينة وبين البحر مسيرة ستة أيام أو سبعة، تدخل هذا النهر سفن التجار الواردة من بلاد البصرة وسيراف وعمان ومدن الهند وجزائر الزابج والصنف وغيرها من الممالك بالأمتعة والجهاز. وتقرب إلى مدينة خانقوا، وفيها خلائق من الناس مسلمون ونصارى ويهود ومجوس، وغير ذلك من أهل الصين.

فقصد هذا العدو إلى هذه المدينة فحاصرها، وأتته جيوش الملك فهزمها، واستباح ما فيها. فكثرت جنوده، وافتتح مدينة خانقوا عنوة، وقتل من أهلها خَلْقًا لا يحصون كثرة. وأحصى من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس ممن قتل وغرق خوف السيف فكان مائتى ألف.

وإنما أحصى ما ذكرناه فى هذا العدد، لأن ملوك الصين تحصى من فى مملكتها من رعيتها، وكذا من جاورها من الأمم، ليصير ذمة لها فى دواوين لها، بكتَّاب قد وُكلوا بإحصاء ذلك لما يراعون من حياطة من شمله ملكهم.

وقطع هذا العدو ما كان حول مدينة خانقوا من غابات شجر التوت، إذ كان يُحتفظ به لما يكون من ورقه، وما يُطعم منه لدود القز الذى ينتج منه الحرير، فكان ذهاب الشجر داعيًا إلى انقطاع الحرير الصينى وجهازه إلى ديار الإسلام.

وسار يانشو بجيوشه إلى بلد بلد فافتتحه، وانضاف إليه أمم من الناس ممن يطلب الشر والنهب وغيرهم ممن يخاف على نفسه، وقصد مدينة أنموا، وهى دار الملك، فخرج إليه الملك فى نحو مائة ألف ممن بقى معه من خواصه والتقى هو ويانشو. وكانت الحرب بينهم سجالاً نحواً من شهر. وصبر الفريقان جميعًا، ثم كانت على الملك فولى منهزما.

وأمعن الخارجى فى طلبه، فانحاز الملك إلى مدينة فى أطراف أرضه، واستولى الخارجى على الحوزة، واحتوى على ديار الملك، وملك خزائن الملوك السالفة، وما أعدوه للنوائب، وشن الغارات فى سائر العمارات، وافتتح المدن.

وعلم أن لا قوام له بالملك، إذ كان ليس من أهله، فأمعن فى خراب البلاد واستباحة الأموال، وسفك الدماء.

وكاتب ملك الصين من المدينة التى انحاز إليها المتاخمة لبلاد التبتّ (وهى مدينة مد المتقدم ذكرها) ملك الترك ابن خاقان فاستنجده، وأعلمه مانزل به، وأعلمه ما يلزم الملوك من الواجبات إذا استنجدها اخوانها من الملوك، وأن ذلك من فرائض الملك وواجباته.

فأنجده ابن خاقان بولد له بنحو من أربعمائة ألف فارس وراجل، وقد استفحل أمر يانشو. فالتقى الفريقان جميعًا، فكانت الحرب بينهم سجالاً نحواً من سنة، وتفانى من الفريقين خلق كثير.

ففُقد يانشو، فقيل: إنه قتل، وقيل: إنه أُحرق، وأُسر ولده والخواص من أصحابه.

وسار ملك الصين إلى دار المملكة وعاد إلى ملكه والعامة تسميه يعبور[٦]، وتفسير ذلك ابن السماء تعظيمًا له. وهو الاسم الأخص لملوك الصين، والذى يخاطبون به جميعًا جحان، ولا يخاطبون بيعبور. وتغلب كل صاحب ناحية من عمله على ناحيته، كتغلب ملوك الطوائف حين قتل الإسكندر بن فيليبوس المقدونى دارا بن دارا ملك فارس، وكنحو ما نحن بسبيله فى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة).

(٦) فى أخبار الصين والهند لقبه: البغبور.

فرضى ملك الصين منهم بالطاعة له، ومكاتبته بالملك، ولم يتأت له المسير إلى سائر أعماله، ولا محاربة من تغلب على بلاده، وقنع بما وصفنا. وامتنع مَنْ ذكرنا مِنْ حمل الأموال إليه فتاركهم مسالمًا لهم، وعدا كل فريق منهم على ما يليه على حسب قوته وتمكنه، فعدِم انتظام الملك واستقامته على حسب ما سلف من ملوكهم.

وقد كان لمن سلف من ملوكهم سِيَر وسياسات للملك، وانقياد للعدل، على حسب ما توجبه قضية العقل.

وحُكى أن رجلاً من التجار من أهل مدينة سمرقند من بلاد خراسان خرج من بلاده، ومعه متاع كثير، حتى انتهى إلى العراق، فحمل من جهازه، وانحدر إلى البصرة، وركب البحر حتى أتى إلى بلاد عمان.

وركب إلى بلاد كلة، وهى النصف من طريق الصين أو نحو ذلك، وإليها تنتهى مراكب أهل الإسلام من السيرافيين والعمانيين فى هذا الوقت فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين فى مراكبهم.

وقد كانوا فى بدء الزمان بخلاف ذلك. وذلك أن مراكب الصين كانت تأتى بلاد عمان وسيراف وساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة، وكذلك كانت المراكب تختلف عن المواضع التى ذكرنا إلى ما هناك. ولما عدم العدل وفسدت النيات وكان من أمر الصين ما وصفنا التقى الفريقان جميعًا فى هذا النصف.

ثم ركب هذا التاجر من مدينة كلة فى مراكب الصينيين إلى مدينة خانقوا، وهى مرسى المراكب على حسب ما ذكرنا آنفا.

وبلغ ملك الصين خبر المراكب وما فيها من الجهاز والأمتعة، فسرح خصيًا من خواص خدمه ممن يثق به فى أسبابه.

وذلك أن أهل الصين يستعملون الخصيان من الخدم فى الخراج وغيره من

العمالات والمهمات، وفيهم من يخصى ولده طلبًا للرياسة واعتقاد النعمة.

فسار الخصى حتى أتى مدينة خانقوا، وأحضر التجار ومعهم التاجر الخراسانى، فعرضوا عليه ما احتاج إليه من المتاع وما يصلح له.

فسأل الخراسانى أن يحضر متاعه فأحضره، وجرت بينهم محادثة. ودار الأمر فى التثمين للمتاع، فأمر الخصى بسجن الخراسانى وإكراهه. وذلك أنه زاده ثقة منه بعدل الملك.

فمضى الخراسانى من فوره حتى أتى مدينة انموا، وهى دار الملك، فوقف موقف المتظلم. وذلك أن المتظلم إذا أتى من البلد الشاسع أو غيره تقمص نوعًا من الحرير الأحمر ووقف موضعًا قد رُسم للظلامة.

وقد رتب بعض ملوك النواحى للقبض على من يرد من المتظلمين، ويقف ذلك الموقف، فيُحمل مسيرة شهر من أرضهم على البريد، ففُعل ذلك بالتاجر الخراسانى، ووقف بين يدى صاحب تلك الناحية المرتب لما ذكرناه، فأقبل عليه، وقال: أيها الرجل، لقد تعرضت لأمر عظيم، وخاطرت بنفسك، انظر إن كنت صادقًا فيما تخبر به، وإلا فإنا نقيلك ونردك من حيث جئت.

وكان هذا خطابه لمن يتظلم. فإن رآه قد جزع وضرع فى القول ضربه مائة خشبة ورده من حيث جاء. وإن هو صبر على ما هو عليه حُمل إلى حضرة الملك، وأوقف بين يديه، وسُمع كلامه.

فصمم الخراسانى فى المطالبة والظلامة، فرآه محقّا غير ضرع ولا متلجلج، فحُمل إلى الملك، فوقف بين يديه وقص حديثه على الملك.

فلما أن أدى الترجمان إليه ما قاله وفهم ظلامته، أمر به إلى بعض المواضع وأحسن إليه. وأحضر الوزير وصاحب الميمنة وصاحب القلب وصاحب الميسرة، وهم أناس قد رُتبوا لذلك عند الملمات وحين الحروب، قد عرف كل واحد منهم مرتبته والمراد منه، فأمرهم الملك أن يكتب كل واحد منهم إلى صاحبه بالناحية،

ولكل واحد منهم خليفة فى كل ناحية، فكتبوا إلى أصحابهم بخانقوا أن يكتبوا إليهم بما كان من خبر التاجر والخادم، وكتب الملك إلى خليفته بالناحية بمثل ذلك.

وقد كان خبر الخادم والتاجر اشتهر واستفاض، فوردت الكتب على بغال البريد بتصحيح ما قاله التاجر. وذلك أن ملوك الصين لها فى سائر الطرق من أعمالها بغال للبريد مسرجة محذوة الآلات للأخبار والخرائط.

فبعث الملك فاستحضر الخادم، فلما وقف بين يديه سلبه ما كان أنعم به عليه، ثم قال له: عمدت إلى رجل تاجر قد خرج من بلد شاسع، وقطع مسالك، واجتاز بملوك فى بر وبحر، فلم يُتعرض له، يؤمل الوصول إلى مملكتى ثقة منه بعدلى، ففعلت به ما فعلت، وكاد ينصرف عن ملكى، ويقبح الأحدوثة عن سيرتى، أما لولا قديم حرمتك بنا لقتلتك، لكن أعاقبك بعقوبة إن عقلت فإنها أكبر من القتل، وهى أن أوليك مقابر الموتى من الملوك السالفة أن عجزت عن تدبير الأحياء والقيام بما إليه نُدبت.

وأحسن الملك إلى التاجر وحمله إلى خانقوا، وقال له: إن سمحت نفسك أن تبيع منا ما اختير لنا من متاعك بالثمن الجزيل، وإلا فأنت المحكم فى مالك: أقم إذا شئت، وبع كيف شئت، وانصرف راشدا حيث شئت، وصرف الخادم إلى مقابر الملوك.

❁ ❁ ❁

قال المسعودى: ومن طرائف أخبار ملوك الصين أن رجلاً من قريش من ولد هبار بن الأسود، لما كان من أمر صاحب الزنج بالبصرة ما كان واشتهر، خرج هذا الرجل من مدينة سيراف ـ وكان من أرباب البصيرة وأرباب النعم بها، وذوى الأحوال الحسنة ـ ثم ركب منها فى بعض مراكب بلاد الهند. ولم يزل يتحول من مركب إلى مركب، ومن بلد إلى بلد، يخترق ممالك الهند، إلى أن انتهى إلى بلاد الصين، فصار إلى مدينة خانقوا.

ثم دعته همته إلى أن صار إلى دار ملك الصين. وكان الملك يومئذ بمدينة حمدان (٧) ، وهى من كبار مدنهم، ومن عظيم أمصارهم، فأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع، ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب.

فأمر الملك بعد هذه المدة الطويلة بإنزاله فى بعض المساكن وإزاحة العلة من أموره وجميع ما يحتاج إليه. وكتب إلى الملك المقيم بخانقوا يأمره بالبحث عنه، ومساءلة التجار عما يدعيه الرجل من قرابة نبى العرب صلى الله عليه وسلم.

فكتب صاحب خانقوا بصحة نسبه، فأذن له فى الوصول إليه،ووصله بمال واسع، وأعاده إلى العراق.

وكان شيخًا فهمًا، فأخبر أنه لما وصل إليه، سأله عن العرب، وكيف أزالوا ملك العجم.

فقال له: بالله عز وجل، وما كانت العجم عليه من عبادة النيران والسجود للشمس والقمر من دون الله عز وجل.

فقال له: لقد غلبت العرب على أجلّ الممالك وأنفَسِها، وأوسعها ريعًا، وأكثرها أموالاً،وأعقلها رجالاً، وأهداها صوتًا.

ثم قال له: فما منزلة سائر الملوك عندكم؟ فقال: ما لى بهم علم.

فقال للترجمان: قل له: إنا نعد الملوك خمسة: فأوسعهم مُلكًا الذى يملك العراق، لأنه فى وسط الدنيا، والملوك محدقة به، ونجد اسمه ملك الملوك. وبعده ملكنا هذا، ونجده عندنا ملك الناس، لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا، ولا أضبط لملكه من ضبطنا ملكنا، ولا رعية من الرعايا أطوع لملكها من رعيتنا. فنحن ملوك الناس. ومن بعده ملك السباع، وهو ملك الترك الذى يلينا، وهم سباع الأنس. ومن بعده ملك الفيلة، وهو ملك الهند، ونجده عندنا ملك الحكمة أيضًا، لأن أصلها منهم. ومن بعده ملك الروم، وهو عندنا ملك الرجال، لأنه ليس فى الأرض أتم خلقًا من رجاله، ولا أحسن وجوهًا منهم. . فهؤلاء أعيان الملوك والباقون دونهم.

(٧) فى أخبار الصين والهند: خمدان.

ثم قال للترجمان: قل له: أتعرف صاحبك إن رأيته (يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم)؟

قال القرشى: وكيف لى برؤيته وهو عند الله عز وجل؟

فقال: لم أرد هذا، وإنما أردت صورته.

فقلت: أجل.

فأمر بسفط فأُخرج فوضع بين يديه، فتناول منه درجا وقال للترجمان: أره صاحبه.. فرأيت فى الدرج صور الأنبياء، فحركت شفتى بالصلاة عليهم، ولم يكن عندهم أنى أعرفهم، فقال للترجمان: سله عن تحريكه لشفتيه. فسألنى، فقلت: أصلى على الأنبياء.

فقال: ومن أين عرفتهم؟

فقلت: بما صور من أمورهم، هذا نوح عليه السلام فى السفينة ينجو بمن معه لما أمر الله عز وجل الماء، فَعمّ الماء الأرض كلها بمن فيها، وسلِمه ومن معه.

فقال: أما نوح فصدقت فى تسميته. وأما غرق الأرض كلها فلا نعرفه، وإنما أخذ الطوفان قطعة من الأرض ولم يصل إلى أرضنا. وإن كان خبركم صحيحًا فعن هذه القطعة. ونحن معاشر أهل الصين والهند والسند وغيرنا من الطوائف والأمم لا نعرف ما ذكرتم، ولا نقل إلينا أسلافنا ما وصفتم، وما ذكرت من ركوب الماء الأرض كلها، فمن الكوائن العظام التى تفزع النفوس إلى حفظه وتتداوله الأمم ناقلة له.

قال القرشى: فهبْت الرد عليه وإقامة الحجة، لعلمى بدفعه ذلك.

ثم قلت: وهذا موسى صلى الله عليه وسلم وبنو إسرائيل.

فقال: نعم، على قلة البلد الذى كان به وفساد قومه عليه.

ثم قلت: هذا عيسى ابن مريم عليه السلام على حماره والحواريون معه.

فقال: لقد كان قليل المدة، إنما كان أمده يزيد على ثلاثين شهراً شيئًا يسيراً.

وعدّد من سائر الأنبياء وأخبارهم ما اقتصرت على ذكر بعضه.

ويزعم هذا القرشي - وهو المعروف بابن هبار - أنه رأى فوق كل صورة كتابة طويلة قد دُوّن فيها ذكر أسمائهم، وواضع بلدانهم، ومقادير أعمارهم، وأسباب نبواتهم وسيرهم.

وقال: ثم رأيت صورة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جمل، وأصحابه محدقون به في أرجلهم نعال عربية من جلود الإبل، وفي أوساطهم الحبال، قد علقوا فيها المساويك.

فبكيت، فقال للترجمان: سله عن بكائه.

فقلت: هذا نبينا وسيدنا وابن عمنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

فقال: صدقت، لقد ملك قومه أجلّ الممالك، إلا أنه لم يعاين من الملك شيئًا، إنما عاينه مَنْ بعده ومَنْ تولى الأمر على أمته من خلفائه.

ورأيت صور أنبياء كثيرة منهم قد أشار بيده جامعًا بين سبابته وإبهامه كالحلقة، كأنه يصف أن الخليقة في مقدار الحلقة، ومنهم من قد أشار بسبابته نحو السماء كالمرهب للخليقة بما فوق، وغير ذلك.

ثم سألني عن الخلفاء وزيهم وكثير من الشرائع، فأجبته على قدر ما أعلم منها.

ثم قال: كم عمر الدنيا عندكم؟ فقلت: قد تنوزع في ذلك، فبعضٌ يقول ستة آلاف سنة، وبعضٌ يقول دونها، وبعضٌ يقول أكثر منها.

فقال: ذلك عن نبيك؟

فقلت: نعم.

فضحك ضحكًا كثيراً ووزيره أيضًا، وهو واقف دل على إنكار ذلك، وقال: ما حسبت نبيكم قال هذا.

فزللت فقلت: بلى هو قال ذلك.

فرأيت الإنكار فى وجهه، ثم قال للترجمان: قل له ميز[8] كلامك، فإن الملوك لا تُكلم إلا عن تحصيل[9]. أما زعمت أنكم تختلفون فى ذلك، فإنكم إنما اختلفتم فى قول نبيكم، وما قالت الأنبياء لا يجب أن يُختلف فيه، بل هو مسلّم لها؛ فاحذر هذا وشبهه أن تحكيه.

وذكر أشياء كثيرة ذهبت عنى لطول المدة.

ثم قال لى: لم عدلت عن ملكك وهو أقرب إليك دارًا ونسبًا؟

قلت: بما حدث على البصرة [10]، ووقوعى إلى سيراف، ونزعت بى همتى إلى ملكك أيها الملك، لما بلغنى من استقامة ملكك، وحسن سيرتك، وكثرة جنودك وشمول سياستك لسائر رعيتك فأحببت الوقوع إلى هذه المملكة ومشاهدتها. وأنا راجع عنها إلى بلادى، وملك ابن عمى، ومخبر بما شاهدت من جلالة هذا الملك، وسعة هذه البلاد، وعموم هذا العدل، وحسن شيمك أيها الملك المحمود، وسأقول بكل قول حسن وأثنى بكل جميل.

فسره ذلك، وأمر لى بجائزة سنية، وخلع شريفة. وأمر بحملى على البريد إلى مدينة خانقوا، وكتب إلى ملكها بإكرامى وتقديمى على من فى ناحيته من سائر خواص الناس، وإقامة النزل إلى وقت خروجى عنه. فكنت عنده فى أخصب عيش وأنعمه، إلى أن خرجت من بلاد الصين.

وصف مدينة حُمْدان:

قال المسعودى: وأخبرنى أبو زيد الحسن بن يزيد السيرافى بالبصرة (وكان قد قطنها وانتقل عن سيراف، وذلك فى سنة ثلاث وثلثمائة، وأبو زيد هذا هو ابن عمر بن زيد بن محمد بن مزد بن ساسياد السيرافى. وكان الحسن بن يزيد من

(٨) أى دقق في أو تتحقق مما تقول.

(٩) أى عن معلومات موثوق بها.

(١٠)يقصد ثورة الزنج عام ٢٥٧هـ/ ٨٧١م.

أهل التحصيل والتمييز) أنه سأل ابن هبار هذا القرشى عن مدينة حمدان التى بها الملك وصفتها. فذكر سعتها وكثرة أهلها، وأنها مقسومة على قسين يفصل بينهما شارع عظيم طويل عريض.

فالملك ووزيره وقاضى القضاة وجنوده وخصيانه، وجميع أسبابه فى الشق الأيمن منه مما يلى المشرق، لا يخالطهم أحد من العامة، وليس فيه شىء من الأسواق، بل أنهار فى سككهم مطردة، وأشجار عليها منتظمة، ومنازل فسيحة.

وفى الشق الأيسر مما يلى المغرب الرعية والتجار والميرة والأسواق.

فإذا وضح النهار رأيت فيها قهارمة الملك وغلمانه وغلمان وزرائه ووكلائهم ما بين راكب وراجل قد دخلوا إلى الشق الذى فيه العامة والتجار، فأخذوا بضائعهم وحوائجهم ثم انصرفوا، فلا يعود واحد منهم إلى هذا الشق إلا فى اليوم الثانى. وأن هذه البلدان فيها كل نزهة وغيضة حسنة، وأنهار مطردة، إلا النخل فإنه معدوم عندهم.

مهارة أهل الصين:

وأما أهل الصين فمن أحذق خلق الله كفًا بنقش وصنعة، وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم. والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر أن غيره يعجز عنه، فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع. فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك إلى سنة. فإن لم يُخرج أحد فيه عيبًا أجاز صانعه وأدخله فى جملة صنّاعه، وإن أخرج أحد فيه عيبًا طرحه ولم يجزه.

وأن رجلاً منهم صوّر سنبلة سقط عليها عصفور فى ثوب حرير، لا يشك الناظر إليها أنها سنبلة سقط عليها عصفور. فبقى الثوب مدة، وأنه اجتاز به رجل أحدب، فعاب العمل، فأُدخل إلى الملك، وأحضر صاحب العمل، فسأل الأحدب عن العيب، فقال: المتعارف عند الناس جميعًا أنه لا يقع عصفور على سنبلة إلا أمالها، وصوّر هذا المصور السنبلة فنصبها قائمة لا ميل

فيهـا، وأثبت العصفور فوقها منتصبًا، فأخطأ. فصدق الأحدب، ولم يثب صاحبها بشيء.

وقصدهم بهذا وشبهه الرياضة لمن يعمل هذه الأشياء، ليضطرهم إلى شدة الاحتراز والحذر وإعمال الفكر فيما يصنعه كل واحد منهم بيده.

(صفحات ١١٨ ـ ١٢٥).

الغوص على اللؤلؤ :

والغوص على اللؤلؤ فى بحر فارس، وإنما يكون فى أول نيسان إلى آخر أيلول، وما عدا ذلك من شهور السنة فلا غوص فيها.

وقد أتينا فيما سلف من كتبنا على سائر مواضع الغوص فى هذا البحر، إذ كان ما عداه من البحار لا لؤلؤ فيه. وهو خاص بالبحر الحبشى من بلاد خارك وقطر وعمان وسرنديب وغير ذلك من هذا البحر.

وقد ذكرنا كيفية تكون اللؤلؤ، وتنازع الناس فى تكونه، ومن ذهب منهم إلى أن ذلك من المطر، ومن ذهب منهم إلى أن ذلك من غير المطر، وصفة صدف اللؤلؤ العتيق منه والحديث الذى يسمى بالمحار، والمعروف بالبلبل، واللحم الذى فى الصدف والشحم. وهو حيوان يفزع على ما فيه من اللؤلؤ والدر خوفًا من الغاصة، كخوف المرأة على ولدها.

وقد أتينا على ذكر كيفية الغوص، وأن الغاصة لا يكادون يتناولون شيئًا من اللحمان إلا السمك والتمر، وغيرها من الأقوات، وما يلحقهم، وذكر شق أصول آذانهم لخروج النفس من هناك بدلاً من المنخرين، لأن المنخرين يُجعل عليهما شيء من الدبل وهو ظهور السلاحف البحرية التى تُتخذ منها الأمشاط أو من القرن يضمهما كالمشقاص لا من الخشب، وما يُجعل فى آذانهم من القطن فيه شيء من الدهن، فيعصر من ذلك الدهن اليسير فى الماء فى قعره، فيضيء لهم بذلك فى البحر ضياءً بينًا، وما يطْلون به أقدامهم

وأسـواقهم مـن السواد خوفًا من بلع دواب البحر إياهم ولنفورها من السواد، وصياح الغاصة فى قعر البحر كالكلاب، وخرق الصوت الماء فيسمع بعضهم صياح بعض.

وللغواص واللؤلؤ وحيوانه أخبار عجيبة، وقد أتينا على جميع أوصاف ذلك وصفات اللؤلؤ وعلاماته وأثمانه ومقادير أوزانه فيما سلف من كتبنا.

فأول هذا البحر مما يلى البصرة والأبلة والبحرين من خشبات البصرة، ثم بحر لاروى وعليه بلاد صيمور وسوبارة وتابة وسندان وكنباية وغيرها من السند والهند، ثم بحر هركند، ثم بحر كلاه، وهو بحر كلة والجزائر، ثم بحر كردنج، ثم بحر الصنف، وإليه يضاف العود الصنفى وإلى بلاده، ثم بحر الصين، وهو بحر صنجى[11] ليس بعده بحر.

فأول بحار فـارس عـلى مـا ذكـرنا خشـبات البصـرة والموضـع المعـروف بالكفـلاء، وهى علامات منصوبة من خشب فى البحر، مغروسة علامات للمراكب إلى عمان مسافة ثلثمائة فرسخ. وعلى ذلك ساحل فارس وبلاد البحرين.

ومن عمـان ـ وقصبتهـا تسمـى سـنجار، والفـرس يسمونـها مـزون ـ إلـى المسقـط، وهى قرية منها يستقى أرباب المراكب الماء من آبار هناك عذبة، خمسون فرسخًا.

ومن المسقط إلى رأس الجمجمة خمسون فرسخًا.. وهذا آخر بحر فارس، وطوله أربعمائة فرسخ، هذا تحديد النواتية وأرباب المراكب.

ورأس الجمجمة جبل متصل ببلاد من اليمن من أرض الشحر والأحقاف، والرمل منه تحت البحر، لا يدرى أين تنتهى غايته فى الماء (أعنى الجبل المعروف برأس الجمجمة).

---

(١١) فى أخبار الصين والهند صنخى.

وإذا كان ما وصفنا من الجبل فى البر ومنه تحت البحر سمى فى البحر الرومى[١٢] سفالة، من تلك السفالة فى الموضع المعروف بساحل سلوقيا من أرض الروم، واتصالها تحت البحر بنحو من جزيرة قبرص، وعليها عطب أكثر مراكب الروم وهلاكها.

وإنما نعبر بلغة أهل كل بحر وما يستعملونه فى خطابهم فيما يتعارفونه بينهم.

فمن هنالك تنطلق المراكب إلى البحر الثانى وهو المعروف بلاروى، ولا يدرى عمقه ولا يُحصر طوله وعرضه عند البحريين. وربما يُقطع فى الشهرين والثلاثة وفى الشهر، على قدر مهبات الريح والسلامة. وليس فى هذه البحار ـ أعنى ما احتوى عليه البحر الحبشى ـ أكبر من هذا البحر بحر لاروى، ولا أشد.

وفى عرضه بحر الزنج وبلادهم، وعنبر هذا البحر قليل. وذلك أن العنبر أكثره يقع إلى بلاد الزنج وساحل الشحر من أرض العرب، وأهل الشحر أناس من قضاعة وغيرهم من العرب.

وهم مهرة، ولغتهم بخلاف لغة العرب. وذلك أنهم يجعلون الشين بدلاً من الكاف، مثل ذلك أن يقولوا: هل لش فيما قلت لى، وقلت لش أن تجعلى الذى معى فى الذى معش. . يريد: هل لك فيما قلت لى، وقلت لك أن تجعلى الذى معى فى الذى معك. وغير ذلك من خطابهم ونوادر كلامهم.

وهم ذوو فقر وفاقة. ولهم نجب يركبونها بالليل تعرف بالنجب المهرية تشبه فى السرعة بالنجب البجاوية، بل عند جماعة أنها أسرع منها، يسيرون عليها على ساحل بحرهم، فإذا أحست هذه النجب بالعنبر قد قذفه البحر بركت عليه، قد ريضت لذلك واعتادته، فيتناوله الراكب.

وأجود العنبر ما وقع فى هذه الناحية وإلى جزائر الزنج وساحله، وهو المدور الأزرق النادر، كبيض النعام أو دون ذلك.

ومنه ما يبلعه الحوت المعروف بالأفال المقدم ذكره. وذلك أن البحر إذا اشتد

(١٢) البحر الأبيض الآن .

قذف من قعره العنبر كقطع الجبال وأصغر، على ما وصفنا. فإذا ابتلع هذا الحوت العنبر قتله فيطفو فوق الماء.

ولذلك أناس يرصدونه فى القوارب من الزنج وغيرهم، فيطرحون فيه الكلاليب والحبال، فيشقون عن بطنه ويستخرجون العنبر منه. فما خرج من بطنه يكون سهكا، ويعرفه العطارون بالعراق وفارس بالند. وما بقى على ظهر الحوت منه كان نقيّا جيدًا، على حسب لبثه فى بطن الحوت.

وبين البحر الثالث ـ وهو هركند ـ والبحر الثانى ـ وهو لاروى ـ على ما ذكرنا جزائر كثيرة، وهى فرز بين هذين البحرين. ويقال: إنها نحو من ألفى جزيرة، وفى قول المحق ألف وتسعمائة جزيرة، كلها عامر بالناس. وملكة هذه الجزائر كلها امرأة، وبذلك جرت عادتهم من قديم الزمان لا يملكهم رجل.

والعنبر يوجد فى هذه الجزائر أيضًا، يقذفه البحر، ويوجد فى بحرها، كأكبر ما يكون من قطع الصخر.

وأخبرنى غير واحد من نواخذة السيرافيين والعمانيين بعمان وسيراف وغيرهما من التجار ممن كان يختلف إلى هذه الجزائر، أن العنبر ينبت فى قعر هذا البحر، ويتكون كتكوّن أنواع الفطر: من الأبيض، والأسود، والكمأة، والمغاريد، وبنات أوبر ونحوها. فإذا هاج البحر واشتد، قذف من قعره الصخور والأحجار وقطع العنبر.

وأهل هذه الجزائر متفقون، وكلمتهم واحدة، ولا يحصرهم العد لكثرتهم، ولا تحصى جيوش هذه الملكة عليهم. وبين الجزيرة والجزيرة نحو الميل والفرسخ والفرسخين والثلاثة.

ونخلهم شجر النارجيل، لا يفقد من النخلة إلا التمر. وقد زعم أناس ممن عنى بتولدات الحيوان وتطعيم الأشجار أن النارجيل هو نخل المُقْل، وإنما أثرت فيه تربة الهند حين غرس فيها فصار نارجيلا، وإنما هو نخل المقل[١٢] .

(١٢) الدوم. ويلاحظ أن هذا إرهاص مبكر بنظرية التطور.

وقد ذكرنا فى كتابنا المترجم بالقضايا والتجارب ما تؤثره كل بقعة من بقاع الأرض وهوائها فى حيواتها من الناطقين وغيرهم، وما تؤثر البقاع فى النامى من النبات، وفيما ليس بنام، كتأثير أرض الترك فى وجوههم وصغر أعينهم، حتى أثر ذلك فى جِمالهم، فقصرت قوائمها، وغلظت رقابها، وإبيض وبرها، وأرض يأجوج ومأجوج فى صورهم، وغير ذلك، مما إذا تبينه ذوو المعرفة فى سكان الأرض من المشرق والمغرب وجدوه على ما ذكرناه.

وليس يوجد فى جزائر البحر ألطف صنعة من أهل هذه الجزائر فى سائر المهن والصناعة فى الثياب والآلات وغير ذلك.

وبيوت أموال هذه الملكة الودع، وذلك أن هذا الودع فيه نوع من الحيوان. وإذا قل مالُها أمرت أهل هذه الجزائر أن يقطعوا من سعف نخل النارجيل بخوصه ويطرحونه على وجه الماء. فيتراكب عليه ذلك الحيوان، فيجمع ويطرح على رمل الساحل، فتحرق الشمس ما فيه من الحيوان، ويبقى الودع خاليًا مما كان فيه، فتُملأ من ذلك بيوت الأموال.

وهذه الجزائر تعرف جميعها بالدبيجات، ومنها يُحمل أكثر الزانج، وهو النارجيل. وآخر هذه الجزائر جزيرة سرنديب.

ويلى جزيرة سرنديب جزائر أخر نحو من ألف فرسخ، تعرف بالرامين، معمورة، وفيها ملوك وفيها معادن من ذهب كثيرة.

ويليها بلاد قنصور، وإليها يضاف الكافور القنصورى، والسنة التى تكون كثيرة الصواعق والبروق والرجف والقذف والزلازل فيها الكافور، وإذا قل ذلك كان نقصانًا فى وجوده.

وأكثر ما ذكرنا من الجزائر غذاؤهم النارجيل، ويحمل من هذه الجزائر خشب البقّم والخيزران والذهب. وفيلتها كثيرة، ومنها ما يأكل لحوم الناس.

وتتصل هذه الجزائر بجزائر النجمالوس، وهى أمم عجيبة الصور عراة

يخرجون فى القوارب عند اجتياز المراكب بهم، معهم العنبر والنارجيل، فيتعاوضون بالحرير وشىء من الثياب، ولا يبيعون ذلك بالدراهم ولا بالدنانير، وتليهم جزائر يقال لها أندامان، فيها أناس سود عجيبو الصورة والمنظر، مفلفلو الشعور، قدم الواحد منهم أكبر من الذراع، لا مراكب لهم. فإذا وقع الغريق إليهم مما قد انكسر فى البحر أكلوه، وكذلك فعلهم بالمراكب إذا وقعت إليهم.

وذكر لى جماعة من النواخذة أنهم ربما رأوا فى هذا البحر سحابًا أبيض قطعًا صغارًا يخرج منه لسان أبيض طويل حتى يتصل بماء البحر. فإذا اتصل به غلا البحر لذلك، وارتفعت منه زوابع عظيمة، لا تمر زوبعة منها بشىء إلا أتلفته، ويمطرون عقيب ذلك مطرًا مهلكًا فيه أنواع من قذى البحر.

بحر كلة:

وأما البحر الرابع فهو كلاهبار، على حسب ما ذكرنا، وتفسير ذلك بحر كلة، وهو بحر قليل الماء، وإذا قل ماء البحر كان أكثر آفات وأشد خبثا.

وهو كثير الجزائر والصراوى (واحدها صرو). وذلك أن أهل المراكب يسمون ما بين الخليجين إذا كان طريقهم فيه الصرو.

وبهذا البحر أنواع من الجزائر والجبال عجيبة، وإنما غرضنا التلويح بلمع من الأخبار عنها، لا البسط.

بحر كردنج:

وكذلك البحر الخامس المعروف بكردنج، فإنه كثير الجبال والجزائر، وفيه الكافور، وهو قليل الماء كثير المطر، لا يكاد يخلو منه.

وفيه أجناس من الأمم منهم جنس يقال له القنجب، شعورهم مفلفلة وصورهم ومناظرهم عجيبة، يتعرضون فى قوارب لهم لطاف للمراكب إذا اجتازت بهم، ويرمون بنوع من السهام عجيبة، قد سقيت السم.

وبين هذه الأمة وبين بلاد كلة جبال معادن الرصاص الأبيض وجبال من الفضة، ومنها أيضًا معادن من الذهب، ورصاص لا يكاد يتميز عنه.

بحر الصنف:

ثم يليه بحر الصنف على ما رتبناه آنفا، وفيه مملكة المهراج مملكة الجزائر، وملكه لا يضبط كثرة، ولا تحصى جنوده، ولا يستطيع أحد من الناس فى أسرع ما يكون من المراكب أن يمر بجزائره فى سنين.

وقد حاز هذا الملك أنواع الطيب والأفاويه، وليس لأحد من الملوك ما له. ومما يحمل من بلاده ويجهز من أرضه الكافور والعود والقرنفل والصندل والجوز والبسباسة والقاقلة والكبابة[١٣] وغير ذلك مما لم نذكره.

وجزائره تتصل ببحر لا تدرك غايته، ولا يعرف منتهاه مما يلى بحر الصين.

وفى أطراف جزائره جبال فيها أمم كثيرة بيض، آذانهم مخرمة ووجوههم كقطع التراس[١٤] مطرقة، يجزّون شعورهم كما يجز الشعر من الزّق[١٤م] مدرجا، تظهر من جبالهم النار بالليل والنهار، فنارها حمراء وبالليل تسود، وتلحق بعنان السماء لعلوها وذهابها فى الجو، تقذف بأشد ما يكون من صوت الرعد والصواعق.

وربما يظهر منها صوت عجيب مفزع ينذر بموت ملكهم، وربما يكون أخفض من ذلك فينذر بموت بعض رؤسائهم.. قد عُرف ما ينذر من ذلك بطول العادات والتجارب على طول السنين، وأن ذلك غير مختلف.

وهذه أحد آطام [١٥] الأرض الكبار، وتليها الجزيرة التى يسمع منها على دوام الأوقات أصوات الطبول والسرنايات والعيدان وسائر أنواع الملاهى المطربة المستلذة، ويسمع إيقاع الرقص والتصفيق. ومن يسمع ذلك يميز بين كل نوع من أصوات الملاهى وغيره.

والبحريون ممن اجتاز بتلك الديار يزعمون أن الدجال بتلك الجزيرة.

---

(١٣) ثمرة شجرة من الفصيلة الفلفلية تنبت فى جزائر الهند الشرقية لها ذنب، طيبة الرائحة حرّيفة الطعم، تُستعمل فى الطب مطهرًا للمجارى البولية (المعجم الوسيط).

(١٤) الزّق: وعاء من جلد يُجَز شعره ولا يُنتف، يُستخدم للشراب. (المعجم الوسيط).

(١٤م) التِّراس جمع تُرس: ما يحتمى به الفارس أثناء القتال.

(١٥) مفردها: أطم، أى قصر أو حصن.

وفى مملكة المهراج جزيرة سريرة، ومسافتها فى البحر نحو من أربعمائة فرسخ، عمائر متصلة، وبه جزيرة الزانج والرامنى، وغير ذلك مما لا يؤتى على ذكره من جزائره وملكه. وهو صاحب البحر السادس، وهو بحر الصنف.

بحر الصين:

ثم البحر السابع وهو بحر الصين على ما رتبناه آنفا، ويعرف ببحر صنجى. وهو بحر خبيث كثير الموج والخُب، وتفسير الخب الشدة العظيمة فى البحر. وإنما نخبر عن عبارة أهل كل بحر وما يستعملونه فى خطابهم.

وفيه جبال كثيرة لابد للمراكب من النفوذ بينها. وذلك أن البحر إذا عظم خبه وكثر موجه، ظهرت أشخاص سود طول الواحد منهم نحو الخمسة أشبار أو الأربعة، كأنهم أولاد الأحابيش الصغار، شكلاً واحداً، وقدّاً واحداً.

فيصعدون على المراكب، ويكثر منهم الصعود من غير ضرر. فإذا شاهد الناس ذلك تيقنوا الشدة، فإن ظهورهم علامة للخب فيستعدون لذلك: فمعافى، ومبتلى.

فإذا كان كذلك ربما شاهد المعافى منهم فى أعلى الدقل - ويسميه أرباب المراكب فى بحر الصين وغيره من البحر الحبشى الدولى، ويسميه الرجال فى البحر الرومى الصارى - شيئًا على صورة الطائر يتوقد نوراً، ولا يستطيع الناظر منهم على ملء بصره منه، ولا إدراكه كيف هو.

فإذا استقر على أعلى الدقل يرون البحر يهدأ، والأمواج تصغر، والخب يسكن. ثم إن ذلك النور يُفقد، فلا يُدرى كيف أقبل، ولا كيف ذهب، فذلك علامة الخلاص، ودليل النجاة.

وما ذكرنا فلا تناكر فيه عند أهل المراكب والتجار من أهل البصرة وسيراف وعمان وغيرهم ممن قطع هذا البحر. وما ذكرناه عنهم فممكن غير ممتنع ولا واجب(*)، إذ كان جائزاً فى مقدور البارى جل وعز خلاص عباده من الهلاك واستنقاذهم من البلاء.

(*) يعبّر المسعودى هنا عن موقفه الحذر مما يرويه.

وفى هذا البحر نوع من السراطين يخرج من البحر كالذراع والشبر. وأصغر من ذلك وأكبر. فإذا بان عن الماء بسرعة حركة وصار على البر صار حجارة وزالت عنه الحيوانية.

وتدخل تلك الحجارة فى أكحال العين وأدويتها. وأمره مستفيض أيضًا.

ولبحر الصين أيضًا، وهو السابع المعروف بصنجى، أخبار عجيبة. وقد أتينا على جمل من أخباره وأخبار ما اتصل به من البحار فيما سمينا من كتبنا وأسلفنا من تصنيفنا فى هذا المعنى. ونحن ذاكرون فيما يرد من هذا الكتاب من أخبار الملوك جوامع وجملاً من ذلك.

وليس بعد بلاد الصين مما يلى البحر ممالك تعرف ولا توصف، إلا بلاد السيلى وجزائرها. ولم يصل إليها من الغرباء أحد - من العراق ولا غيره - فخرج منها، لصحة هوائها، ورقة مائها، وجودة تربتها، وكثرة خيرها وصفاء جواهرها إلا النادر من الناس.

وأهلها مهادنون لأهل الصين وملوكها، والهدايا بينهم لا تكاد تنقطع. وقد قيل: إنهم تشعبوا من ولد عامور، وسكنوا هناك، على حسب ما ذكرنا من سكنى أهل الصين فى بلادهم.

وللصين أنهار كبار، مثل: الدجلة والفرات، تجرى من بلاد الترك والتبتّ والصغد، وهى بين بخارى وسمرقند.

جبال النوشادر:

وهنالك جبال النوشادر، فإذا كان فى الصيف رؤيت فى الليل نيران قد ارتفعت من تلك الجبال من نحو مائة فرسخ بالنهار، يظهر منها الدخان لغلبة شعاع الشمس وضوء النهار. ومن هناك يُحملَ النوشادر.

فإذا كان فى أول الشتاء فمن أراد من بلاد خراسان أن يسلك إلى بلاد الصين، صار إلى ما هنالك. وهنالك واد بين تلك الجبال طوله أربعون ميلا أو خمسون. فيأتى إلى أناس هنالك على فم الوادى، فيرغبهم فى الأجرة النفيسة،

فيحملون ما معه على أكتافهم، وبأيديهم العصى يضربون جنبيه خوفًا أن يبلح[١٦] فيموت من كرب الوادى وهوله.

حتى يخرجوا إلى ذلك الرأس من الوادى. وهنالك غابات ومستنقعات للماء، فيطرحون أنفسهم فى ذلك الماء، لما قد نالهم من شدة الكرب وحر النوشادر.

ولا يسلك ذلك الطريق شىء من البهائم، لأن النوشادر يلتهب نارًا فى الصيف، فلا يسلك ذلك الوادى داع ولا مجيب.

فإذا كان الشتاء وكثرت الثلوج والأنداء. وقع فى ذلك الموضع فأطفأ حر النوشادر ولهيبه، فسلك الناس حينئذٍ ذلك الوادى. والبهائم لا صبر لها على ما ذكرناه من حره.

وكذلك من ورد من بلاد الصين فُعل به من الضرب ما فُعل بالمار.

والمسافة من بلاد خراسان على الموضع الذى ذكرناه إلى بلاد الصين نحو من أربعين يومًا، بين عامر وغير عامر ودماس[١٧] ورمل. وفى غير هذا الطريق مما يسلكه البهائم نحو من أربعة أشهر، إلا أن ذلك فى خفارات أنواع من الترك.

وقد رأيت بمدينة بلخ شيخًا جميلاً ذا رأى وفهم، وقد دخل الصين مرارًا كثيرة ولم يركب البحر قط.

ورأيت عدة من الناس ممن سلك من بلاد الصغد على جبال النوشادر إلى أرض التبت والصين ببلاد خراسان، وبلاد الهند متصلة ببلاد خراسان والسند مما يلى بلاد المنصورة والمولتان، والقوافل متصلة من السند إلى خراسان، وكذلك إلى الهند.

إلى أن تتصل هذه الديار بديار زابلستان، وهى بلاد واسعة تعرف بمملكة فيروز بن كبك. وفيها قلاع عجيبة ممتنعة، ولغات مختلفة، وأمم كثيرة. وقد تنازع الناس فى أنسابهم، فمنهم من ألحقهم بولد يافث بن نوح ومنهم من ألحقهم بالفرس الأولى فى نسب طويل.

(١٦) بلح الرجل بلوحا: أعيا.

(١٧) الدّماس كل ما غطاك، معناها هنا: الظلام، من الفعل الثلاثى: دَمَس.

وصف بلاد التبت:

وبلاد التبت مملكة متميزة من بلاد الصين، والغالب عليهم حمير، وفيهم بعض التبابعة على حسب ما ذكرنا من أخبار ملوك اليمن فيما يرد من هذا الكتاب، وذلك موجود فى أخبار التبابعة.

ولهم حضر وبدو، وبواديهم ترك لا تدرك كثرة، ولا يقاومهم أحد من بوادى الأتراك. وهم معظمون فى سائر أجناس الترك، لأن المُلْك كان منهم فى قديم الزمان، وعند سائر أجناس الترك أن الملك سيعود إليهم ويرجع فيهم.

ولبلاد التبت خواص عجيبة فى هوائها وسهلها ومائها وجبلها، ولايزال الإنسان أبدًا ضاحكًا بها فرحًا مسرورًا، لا تعرض له الأحزان ولا الغموم ولا الأفكار، ولا تحصى عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وهوائها وأنهارها.

وهى بلاد تقوى فيها طبيعة الدم على الحيوان الناطق وغيره. ولا يكاد يرى فى هذا البلد شيخ حزين ولا عجوز، بل الطرب فى الشيوخ والكهول والشباب والأحداث عام.

وفى أهلها رقة الطبع وبشاشة وأريحية تبعث على كثرة استعمال الملاهى، والمعاقرة، وأنواع إيقاع الرقص. حتى إن الميت إذا مات لا يكاد يداخل أهله عليه كثير من الحزن مما يلحق غيرهم من سائر الناس عند فقد محبوب أو فوت مطلوب . (صفحات ١١٨ ـ ١٣٥).

ظباء المسك:

وفى بلادهم الأرض التى بها ظباء المسك التبتّى الذى يفضل على الصينى بجهتين: إحداهما أن ظباء التبتّ ترعى سنبل الطيب وأنواع الأفاويه، وظباء الصين ترعى الحشيش دون ما ذكرنا من أنواع حشائش الطيب التى ترعاه التبتية.

والجهة الأخرى أن أهل التبتّ لا يتعرضون لإخراج المسك من نوافجه ويتركونه على ما هو به، وأهل الصين يخرجونه من النوافج ويلحقونه الغش

بالدم وغيره من أنواع الغش، وأن الصينى أيضًا يقطع به ما وصفنا من مسافة البحار، وكثرة الأنداء، واختلاف الأهوية.

وإن عدم من أهل الصين الغش فى مسكهم، وأودع برانى الزجاج وأحكم عقاصها ووكاؤها[١٨]، وأورد إلى بلاد الإسلام من عمان وفارس والعراق وغيرها من الأمصار، كان كالتبتّى.

وأجود المسك وأطيبه ما خرج من الظباء بعد بلوغه النهاية فى النضج. وذلك أنه لا فرق بين غزلاننا هذه وبين غزلان المسك فى الصورة والشكل واللون والقرن.

وإنما تتبين تلك بأنياب لها كأنياب الفيلة: لكل ظبى نابان خارجان من الفكين قائمان منتصبان أبيضان نحو الشبر وأقل وأكثر. فتنصب لها فى بلاد التبتّ والصين الحبائل والأشراك والشباك فيصطادونها، وربما رموها بالسهام فيصرعونها، فيقطعون عنها نوافجها والدم فى سررها حار لم ينضج، وطرى لم يدرك، فيكون لرائحته سهوكة. فيبقى زمانا حتى تزول منه تلك الرائحة السهكة الكريهة، ويستحيل بمواد من الهواء فيصير مسكا.

وسبيل ذلك سبيل الثمار إذا أبينت عن الأشجار وقطعت قبل استحكام نضجها فى شجرها واستحكام موادها فيه. وخير المسك ما نضج فى وعائه، وأُدرك فى سرته، واستُحكم فى حيوانه، وتمام مواده.

وذلك أن الطبيعة تدفع مواد الدم إلى السرة، فإذا استحكم كون الدم فيها ونضج آذاه ذلك وحكه. فيفزع حينئذٍ إلى أحد الصخور والأحجار الحارة من حر الشمس، فيحتك بها مستلذًا بذلك، فينفجر حينئذ ويسيل على تلك الأحجار.. كانفجار الخراج والدمل إذا نضج ما فيه عند ترادف المواد عليه، فيجد لخروجه لذة.

فإذا فرغ ما فى نافجته اندمل حينئذٍ، ثم اندفعت إليه مواد من الدم، ويجتمع ثانية ككونها بدءًا.

(١٨) أى إغلاقها وحملها فى وضع سليم.

فتخرج رجال التبت يقصدون مراعيها بين تلك الأحجار والجبال، فيجدون الدم قد جف على تلك الصخور والأحجار، وقد أحكمته المواد، وأنضجته الطبيعة فى حيوانه، وجففته الشمس، وأثر فيه الهواء، فيأخذونه.. فذلك أفضل المسك.

فيدَعونه نوافج معهم قد أخذوها من غزلان قد اصطادوها مستعدة معهم، فذلك الذى تستعمله ملوكهم ويتهادونه بينهم، ويحمله التجار فى النادر من بلادهم.

والتبت ذو مدن كثيرة، فيضاف مسك كل ناحية إليها.

❁❁❁

قال المسعودى: وقد أقرت ملوك الصين والترك والهند والزنج وسائر ملوك العالم لملك بابل بالتعظيم، وأنه أول ملوك العالم، وأن منزلته فيهم كمنزلة القمر فى الكواكب، لأن إقليمه أشرف الأقاليم، ولأنه أكثر الملوك مالاً، وأحسنهم طبعًا، وأكثرهم سياسةً، وأثبتهم قدمًا. وهذا وصف ملوك هذا الإقليم فيما مضى لا فى هذا الوقت، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة.

وكانوا يلقبون هذا الملك شاهنشاه، وتفسيره ملك الملوك. ومنزلته فى العالم منزلة القلب من جسد الإنسان، والواسطة من القلادة.

ثم يتلوه ملك الهند، وهو ملك الحكمة، وملك الفيلة، لأن عند الملوك الأكاسرة أن الحكمة من الهند بدؤها.

ثم يتلوه فى المرتبة ملك الصين، وهو ملك الرعاية والسياسة وإتقان الصنعة. وليس فى ملوك العالم أكثر رعاية وتفقدًا من ملك الصين لرعيته من جنده وعوامه. وهو ذو بأس شديد، وقوة ومنعة، له من الجنود المستعدة، والكُراع(١٩) والسلاح، ويرزق جنده(٢٠) كفعل ملوك بابل.

ثم يتلو ملك الصين ملك من ملوك الترك صاحب مدينة كوشان، وهو ملك

(١٩) الكُراع اسم يُطلق على الخيل والبغال والحمير (المنجد).

(٢٠) أى يدفع لهم أجراً.

الطغرغر من الترك. ويدعى ملك السباع وملك الخيل، إذ ليس فى ملوك العالم أشد بأسًا من رجاله، ولا أشد استئسادًا منه على سفك الدماء، ولا أكثر خيلاً منه.

ومملكته فِرز[٢١] بين بلاد الصين ومفاوز خراسان، ويدعى بالاسم الأعم أيرخان. وللتَرك ملوك كثيرة، وأجناس مختلفة، ولا تنقاد[٢٢] إلى ملكه، إلا أنه ليس منهم من يدانى[٢٣] ملكه.

ثم يتلوه ملك الروم، ويدعى ملك الرجال، وليس فى ملوك العالم أصبح وجوهًا من رجاله. (صفحات ١٣٦ ـ ١٣٨).

ولغة السند خلاف لغة الهند، والسند مما يلى الإسلام، ثم الهند. ولغة أهل المانكير، وهى دار ملكة البلهرا، كيرية مضافة إلى الصقع وهى كيرة، ولغة ساحله مثله صيمور وسوبارة وتانة وغير ذلك من مدن الساحل لاريه. وبلدهم مضافة إلى البحر الذى هم عليه، وهو لاروى، وقد تقدم ذكره فيما سلف من هذا الكتاب.

ولهذا الساحل أنهار عظيمة تجرى من الجنوب، بالضد من أنهار العالم، وليس فى أنهار العالم ما يجرى من الجنوب إلى الشمال إلا نيل مصر ومهران السند ويسير من الأنهار، وماعدا ذلك من أنهار العالم يجرى من الشمال إلى الجنوب.

وقد ذكرنا وجه العلة فى ذلك، وما قاله الناس فى هذا المعنى فى كتابنا «أخبار الزمان». وقد ذكرنا ما انخفض من الأرض وما ارتفع.

وليس فى ملوك السند والهند من يعز المسلمين فى مُلْكه إلا البلهرا، فالإسلام فى ملكه عزيز مصون، ولهم مساجد مبنية، وجوامع معمورة بالصلوات للمسلمين، ويملك الملك منهم الأربعين سنة والخمسين سنة فصاعدًا. وأهل مملكته يزعمون أنه إنما طالت أعمار ملوكهم لسُنَّة العدل وإكرام المسلمين.

وهو ملك يرزق الجنود من بيت ماله كفعل المسلمين بجنودهم، وله دراهم

---

(٢١) فِرز: موضع منخفض بين ربوتين (المعجم الوسيط).

(٢٢) لاتنقاد: لا تخضع.

(٢٣) لا يدانى: لا يماثل.

طاهرية وزن الدرهم منها وزن درهم ونصف، سكَّتُه بدء تاريخ مملكتهم. وفيلته الحربية لا تحصى كثرة. وتدعى بلاده أيضا بلاد الكمكر.

ويحاربهم ملك الخزر من إحدى جهات مملكته، وهو ملك كثير الخيول والإبل والجنود، ويزعم أنه ليس فى ملوك العالم أجلّ منه إلا صاحب إقليم بابل، وهو الإقليم الرابع. وذلك أن هذا الملك ذو نخوة وصولة على سائر الملوك، وهو مع ذلك مبغض للمسلمين. وهو كثير الفيلة، وملكه على لسان من الأرض. وفى أرضه معادن الذهب والفضة، ومبايعتهم بهما.

ثم يلى هذا الملك ملك الطافن، موادع لمن حوله من الملوك، وهو مكرم للمسلمين، وليست جيوشه كجيوش من ذكرنا من الملوك. وليس فى نساء الهند أحسن من نسائهم، ولا أكثر منهن جمالاً وبياضًا، وهن موصوفات الخلوات، مذكورات فى كتب الباه، وأهل البحر يتنافسون فى شرائهن. يعرفن بالطافنيات.

رهمى :

ثم يلى هذا الملك مملكة رهمى، وهذه سمة لملوكهم، وهو الأعم من أسمائهم. ويقاتله الخزر، ومُلْكه متاخم لملكهم. ورهمى يحارب البلهرا أيضًا من إحدى جهات مملكته، وهو أكثر جيوشًا وفيلةً وخيولاً من البلهرا ومن ملك الخزر ومن ملك الطافن. وإذا خرج فى حروبه فرسمه أن يكون فى خمسين ألف فيل، ولا يكون حربه إلا فى الشتاء لقلة صبر الفيلة على العطش وقلة لبثها.

والمكثر من الناس يغلو فى القول فى كثرة جنوده، فيزعمون أن عدد القصارين والغسالين فى عسكره من عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف. وحرب من ذكرنا من الملوك كراديس، كل كردوس(٢٤) عشرون ألفا، أربعة أوجه كل وجه من الكردوس خمسة آلاف. ومملكة رهمى تعاملهم بالودع، وهو مال البلد.

وفى بلده العود والذهب والفضة والثياب التى ليست لغيره رقة ودقة، ومن بلده يُحمل الشعر المعروف بالضمر الذى تتخذ منه المذاب بنصب العاج والفضة، يقوم بها الخدم على رؤوس الملوك فى مجالسها.

(٢٤) الكردوس: طائفة عظيمة من الخيل والجيش (المعجم الوسيط).

وصف الكركدن:

وفى بلده الحيوان المعروف بالنشان[٢٥] المعلم، وهو الذى تسميه العوام الكركدن. وله فى مقدم جبهته قرن واحد. وهو دون الفيل فى الخلقة وأكبر من الجاموس، إلى السواد ما هو. وهو يجتر كما تجتر البقر وغيرها مما يجتر من الحيوان.

والفيلة تهرب منه. وليس فى أنواع الحيوان، والله أعلم، أشد منه. وذلك أن أكثر عظامه أصم، ولا فصل فى قوائمه، ولا يبرك فى نيام، وإنما يكون بين الشجر والآجام يستند إليها عند نومه.

والهند تأكل لحمه، وكذلك من فى بلادهم من المسلمين، لأنه نوع من البقر.

والجواميس بأرض السند والهند كثيرة، وهذا النوع من الحيوان وهو النشان يكون فى أكثر غابات الهند، إلا أنه فى مملكة رهمى أكثر، وقرونه أصفى وأحسن.

وذلك أن قرنه أبيض، وفى وسطه صورة سوداء فى ذلك البياض: إما صورة إنسان، أو صورة طاووس بتخطيطه وشكله، أو صورة سمكة، أو صورته فى نفسه، أو صورة نوع من الحيوان مما يوجد فى تلك الديار.

فيُنشر هذا القرن وتُتخذ منه المناطق والسيور على صورة الحلية من الذهب والفضة فتلبسها ملوك الصين وخواصها، تتنافس فى لبسها وتبالغ فى أثمانها، فتبلغ المنطقة ألفى دينار إلى أربعة آلاف، فيها معاليق الذهب، وذلك فى نهاية الحسن والاتقان.

وربما تُقَمَّع بأنواع من الجواهر على قضبان الذهب، ووجوه تلك الصور مكتوبة بسواد فى بياض، وربما يوجد فى قرونه بياض فى سواد. وليس فى كل بلد يوجد فى قرون النشان ما ذكرنا من الصور.

وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن الكركدن يحمل فى بطن أمه سبع سنين، وأنه يُخرج رأسه من بطن أمه فيرعى، ثم يُدخل رأسه فى بطنها.

(٢٥) فى أخبار الصين والهند: البُشان.

وهذا القول أورده فى كتاب «الحيوان» على طريق الحكاية والتعجب، فبعثنى هذا الوصف على مسألة من سلك تلك الديار من أهل سيراف وعمان ومن رأيت بأرض الهند من التجار، فكل يتعجب من قوله إذا أخبرته بما عندى من هذا وسألته عنه، ويخبروننى أن حمله وفصاله[٢٦] كالبقر والجواميس. ولست أدرى كيف وقعت هذه الحكاية للجاحظ: أمن كتاب نقلها أو مخبر أخبره بها؟

ولرهمى فى ملكه بر وبحر، ويلى ملكه ملك لا بحر له يقال له ملك الكامن. وأهل مملكته بيض مخرمو الآذان. لهم فيلة وإبل وخيول، وحسن وجمال للرجال والنساء.

ثم بعد هؤلاء ملك الإفرنج، وله بر وبحر. وهو على لسان من البر فى البحر، يقع إلى بلده عنبر كثير، وفى بلده فلفل يسير. وهو ذو فيلة كثيرة، وهو ذو بأس بين الملوك وزهو وفخر، وزهوه أكثر من قوته، وفخره أكثر من بأسه.

ثم يلى هذا الملك ملك الـمُوجَه أهله بيض ذوو حسن وجمال غير مخرومى الآذان، لهم خيل كثيرة، وعدد منيعة.

والمسك فى بلادهم كثير على ما قدمنا من غزلانهم ووصف ظبائهم فيما سلف من هذا الكتاب.

وهذه الأمة تشبه أهل الصين فى لباسهم، وجبالهم منيعة شواهق بيض، لا يُعلم بأرض السند والهند ولا فيما ذكرنا من هذه الممالك جبال أطول منها ولا امنع.

ومسكهم موصوف مضاف إلى بلدهم يتعارفه البحريون، ممن عنى بحمل ذلك وتجهيزه، وهو المسك المعروف بالموجهى.

المـانـد:

ثم يلى ملك الـمُوجَه مملكة الماند، ولهم مدن كثيرة وعمائر واسعة وجنود

---

(٢٦) فِصاله: فِطامه.

عظيمة، وملوكهم تستعمل الخدم والخصيان فى عمالات بلدانهم من المعادن وجبايات الأموال والولايات وغيرها كفعل ملوك الصين على حسب ما وصفنا من أخبارهم.

والماند مجاورون لمملكة الصين، والرسل تختلف بينهم بالهدايا. وبينهم جبال منيعة وعقبات صعبة. وللماند البأس العظيم والبطش الشديد والقوة. وإذا دخل رسل ملك الماند مملكة الصين وَكَل ملك الصين بهم، ولم يتركهم ينتشرون فى بلادهم خوفًا أن يقفوا على طرقهم وعورات بلادهم، لكبرة الماند فى نفوسهم. (صفحات ١٤٦ ـ ١٤٨).

أنواع من تهذيب الهند أنفسهم:

والهند تعذب أنفسها على ما وصفنا بأنواع العذاب من دون الأمم، وقد تيقنت أن ما ينالها من النعيم فى المستقبل مؤجلاً لا يكون بغير ما أسلفته من تعذيب أنفسها فى هذه الدار معجلاً.

ومنهم من يصير إلى باب الملك يستأذن فى إحراقه نفسه، فيدور فى الأسواق، وقد أُججت له النار العظيمة وعليها من قد وُكل بإيقادها.

ثم يسير فى الأسواق وقدامه الطبول والصنوج، وعلى بدنه أنواع من خرق الحرير قد مزقها على نفسه، وحوله أهله وقرابته، وعلى رأسه إكليل من الريحان، وقد قشر جلده عن رأسه، وعليها الجمر، وعليها الكبريت والسندروس.

فيسير وهامته تحترق وروائح دماغه تفوح وهو يمضغ ورق التنبول وحب الفوفل.

والتنبول فى بلادهم ورق ينبت كأصغر ما يكون من ورق الأُتْرُج، يمضغ هذا الورق بالنورة المبلولة مع الفوفل. وهو الذى غلب على أهل مكة وغيرهم من بقية أهل الحجاز واليمن فى هذا الوقت مضغة بدلاً من الطيب، ويكون عند الصيادلة للورم وغير ذلك.

وهذا إذا مُضغ على ما ذكرنا بالورق والنورة شدّ اللثة، وقوّى عمود الأسنان، وطيّب النكهة، وأزال الرطوبة المؤذية، وشهّى الطعام، وبعث على الباه، وحمّر الأسنان حتى تكون كأحمر ما يكون من حب الرمان، وأحدث فى النفس طربًا وأريحية، وقوّى البدن، وأثار من النكهة روائح طيبة خمرة.

والهند خواصها وعوامها تستقبح مَنْ أسنانه بيض، وتجتنب مَنْ لا يمضغ ما وصفنا. فإذا طاف هذا المعذب لنفسه بالنار فى الأسواق وانتهى إلى تلك النار، وهو غير مكترث ولا متغير فى مشيته ولا متهيب فى خطوته، ففيهم من إذا أشرف على النار وقد صارت جمرا كالتل العظيم يتناول بيده خنجرا ـ ويدعى الجِرِى عندهم ـ فيضعه فى لبته.

وقد حضرت ببلاد صيمور من بلاد الهند من أرض اللار من مملكة البلهرا، وذلك فى سنة أربع وثلثمائة، والملك يومئذ على صيمور المعروف بحاج، وبها يومئذ من المسلمين نحو من عشرة آلاف قاطنين بياسرة وسيرافيين وعمانيين وبصريين وبغداديين وغيرهم من سائر الأمصار ممن قد تأهل وقطن فى تلك البلاد، وفيهم خلق من وجوه التجار، مثل: موسى بن إسحاق الصندالونى، وعلى الهزمة يومئذ أبو سعيد بن زكريا.

وتفسير الهزمة يراد به رئاسة المسلمين يتولاها رجل منهم عظيم من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفة إليه.

ومعنى قولنا البياسرة يراد به من ولدوا من المسلمين بأرض الهند، يدعون بهذا الاسم، واحدهم بيسر، وجميعهم بياسرة.

فرأيت بعض فتيانهم وقد طاف على ما وصفنا فى أسواقهم، فلما دنا من النار أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقه، ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده فجذب منها قطعة وهو يتكلم فقطعها بالخنجر، فدفعها إلى بعض إخوانه تهاونًا بالموت ولذة بالنقلة.. ثم هوى بنفسه فى النار.

وإذا مات الملك من ملوكهم أو قتل نفسه حرق خلق من الناس أنفسهم لموته،

يدعون هؤلاء البلانجرية[٢٧]، واحدهم بلانجرى، وتفسير ذلك المصادق لمن يموت، فيموت بموته، ويحيا بحياته.

وللهند أخبار عجيبة تجزع من سماعها النفس من أنواع الآلام والمقاتل التى تألم عند ذكرها الأبدان، وتقشعر منها الأبشار[٢٨]. وقد أتينا على كثير من عجائب أخبارهم فى كتابنا «أخبار الزمان». (صفحات ١٧٨ ـ ١٨٠).

جزيرة سقطرة وسكانها

وفى هذا البحر مما يلى بلاد عدن جزيرة تعرف بسقطرة، إليها يضاف الصبر السقطرى، ولا يوجد إلا فيها، ولا يحمل إلا منها.

وقد كان أرسطاطاليس بن نقوماخس كتب إلى الإسكندر بن فيليبس حين سار إلى الهند فى أمر هذه الجزيرة يوصيه بها، وأن يبعث إليها جماعة من اليونانيين يسكنهم فيها من أجل الصبر السقطرى الذى يقع فى الأيارجات وغيرها.

فصير الإسكندر إلى هذه الجزيرة خلقًا من اليونانيين أكثرهم من مدينة أرسطاطاليس ابن نقوماخس، وهى مدينة اسطاغر، فى المراكب بأهليهم فى بحر القلزم، فغلبوا على من كان بها من ملوك الهند، وملكوا الجزيرة.

وكان للهند بها صنم عظيم، فنقل ذلك الصنم فى أخبار يطول ذكرها.

وتناسل من بالجزيرة من اليونانيين فيها، ومضى الإسكندر، فظهر المسيح فتنصر من كان بها إلى هذا الوقت، وليس فى الدنيا، والله أعلم، موضع فيه قوم من اليونانيين يحفظون أنسابهم لم يداخلهم فى أنسابهم رومى ولا غيرهم غير أهل هذه الجزيرة.

وهم فى هذا الوقت تأوى إليهم بوارج الهند الذين يقطعون على المسلمين فى هذه البوارج (وهى المراكب) على من أراد الصين والهند وغيرهما، كما يقطع الروم فى الشوانى على المسلمين فى البحر الرومى من ساحل الشام ومصر.

ويحمل من جزيرة سقطرة الصبر السقطرى وغيره من العقاقير.

ولهذه الجزيرة أخبار عجيبة، ولما فيها من خواص النبات والعقاقير، قد أتينا على كثير من ذكرها فيما سلف من كتبنا. (ص ٣٤١ - ٣٤٢).

---

(٢٧) فى كتاب عجائب الهند: بلاوجرية.

(٢٨) جمع الجمع لبشر.

ثانيًا: من «الأخبار الطوال» للدينورى نقلاً عن «تاريخ الأدب الجغرافى العربى» لكراتشكوفسكي:

«وذكر عن عبد الله بن الصامت قال وجهنى أبو بكر رضه سنة استخلف إلى ملك الروم لأدعوه إلى الإسلام أو آذنه بحرب، قال: فسرت حتى أتيت القسطنطينية فأذن لنا عظيم الروم فدخلنا عليه فجلسنا ولم نسلّم، ثم سألنا عن أشياء من أمر الإسلام، ثم صرفنا يومنا ذلك، ثم دعا بنا يومًا آخر ودعا خادمًا له فكلمه بشيء، فانطلق فأتاه بعتيدة فيها بيوت كثيرة وعلى كل بيت باب صغير ففتح بابًا منها فاستخرج خرقة سوداء فيها صورة بيضاء كهيئة رجل أجمل ما يكون من الناس وجهًا، مثل: دارة القمر ليلة البدر، فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا. فقال: هذا أبونا آدم عم، ثم رده مكانه، وفتح بابًا آخر فاستخرج خرقة سوداء فيها صورة بيضاء كهيئة شيخ جميل الوجه فى وجهه تقطيب كهيئة المحزون المهموم، فقال: أتدرون من هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا نوح، ثم فتح بابًا آخر فاستخرج خرقة سوداء فيها صورة بيضاء على صورة نبينا محمد ﷺ وعلى جميع الأنبياء فلما نظرنا إليها بكينا. فقال: ما لكم؟ فقلنا: هذه صورة نبينا محمد ﷺ فقال: أبدينكم أنها صورة نبيكم. قلنا: نعم هى صورة نبينا كأنّا نراه حيًّا فطواها وردها، وقال: أما إنها آخر البيوت إلا أنى أحببت أن أعلم ما عندكم. ثم فتح بابًا آخر فاستخرج منه خرقة سوداء فيها صورة بيضاء أجمل ما يكون من الرجال وأشبههم بنبينا محمد ﷺ، ثم قال: وهذا إبراهيم، ثم فتح بيتًا آخر فاستخرج صورة رجل آدم كهيئة المحزون المفكر، ثم قال: هذا موسى بن عمران، ثم فتح بيتًا آخر فاستخرج صورة لرجل له ضفيرتان كأن وجهه دارة القمر، ثم قال: وهذا داود، ثم فتح بيتًا آخر فاستخرج صورة رجل جميل على فرس له جناحان، ثم قال: وهذا سليمان، وهذه الريح تحمله، ثم فتح بيتًا آخر فاستخرج صورة شاب جميل الوجه وفى يده عكازة وعليه مدرعة صوف، ثم قال: وهذا عيسى روح الله وكلمته، ثم قال: إن هذه الصورة وقعت إلى الإسكندر فتوارثها الملوك من بعده حتى أفضت إلىّ». (ص٥٥).

* * *



□ كشافات

أماكن جغرافية

الأعلام والألقاب

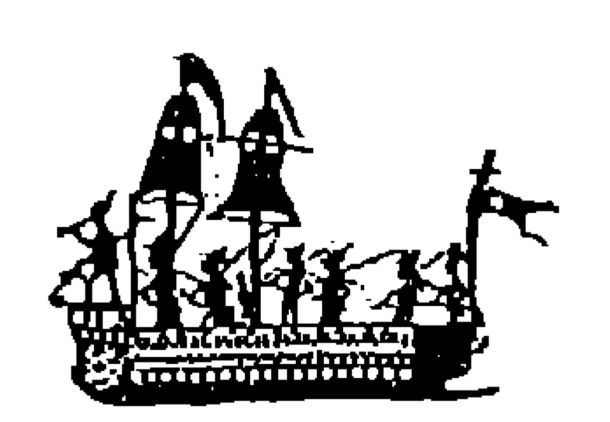
بحار

نباتات

حيوانات وطيور

مأكولات وأشربة

معادن وجواهر وعطور وأقمشة



ألفاظ

شرحها مؤلفا الكتابين

أبواب الصين: جبال فى البحر بين كل جبلين فرجة تمر فيها المراكب: ٤٥.

البُدّ: الصنم الذى يعبده الهنود: ٩٦.

البُسُد: المرجان: ١٠٤.

البُشان (والنشان فى مروج الذهب): حيوان الكركدن: ٥٠، ٥٣.

البغبور: ملك الصين الأعظم ومعناها ابن السماء: ٥٧.

بلّهرا: ملك مخرَّمى الأذان: ٤٩، ملك الملوك بالهند: ٦٠، ٩٠.

البيكرجيون: قوم بالهند عراة، غطت شعورهم أبدانهم وفروجهم، أظفارهم مستطيلة إذ لا يُقص منها إلا ما ينكسر منها: ٩٥.

الثَّلاج: وادٍ يغلب عليه ماء البحر بالمدّ، وينضب عنه الماء العذب بالجزر، وقد شرحها مؤلف كتاب «عجائب الهند» بمعنى: بستان. (كلمة هندية): ٨١.

الجادُم: مثل: البوق يُنفخ فيه، وهو طويل، وسُمْكه مثل: سمك الكفَّين معا، وهو مطلى بطلاء الخزف الصينى، وطوله ثلاثة أو أربعة أذرع، ورأسه دقيق بقدر ما يلتقمه النافخ، ويصل صوته إلى حوالى ميل: ٥٢.

الجَتْره: مظلة من ريش الطواويس، (من الكلمة السنسكريتية Tchatra): ١٠٣.

الجِزْبى: خنجر عجيب الصنعة مُرْهف يهدد به لصوص الهند التجار الذين يخطفونهم ليحصلوا منهم على فدية (وقد ورد فى مروج الذهب باسم الجِرى، صفحة ١٧٩): ٩٢.

الحَرَامات: منابت الأرز: ٩٥.

الخُرابة: القَلُوس (حبل من ليف): ٩٦.

خطفوا: لفظة يستعملها أهل البحر معناها يُقلعون: ٤٣.

الدَرّا: جرس يوضع أمام حاكم المدينة الصينية مربوط بخيط ممتد إلى الطريق للعامة طوله حوالى فرسخ، فإذا تحرك أدنى حركة تحرك الجرس، فمن كانت له شكوى حرّك هذا الخيط، فتحرك الجرس أمام الحاكم فيأذن له بالدخول حتى يشرح له شكواه: ٥٦.

الدردور: مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية (هنا بمعنى الكبيرة التى صنعت فى الصين)، وفيه الجبلان المغمور معظمهما تحت الماء: كُسير وعُوير، والدردور بوجه عام دوامة فى البحر يُخشى فيها الغرق (المعجم الوسيط): ٤٤.

الدهنج: اسم هندى لحجر من الأحجار الكريمة يشبه الزمرد: ١٠٤.

دَيْفو: كلمة صينية معناها حاكم مدينة كبيرة، مثل: كانتون: ٥٤.

الذُبْل: جلود ظهور السلاحف: ٥٣.

الساخ: حشائش يشربها الصينيون بعد غلى الماء ورشها فوقه، وفيه مرارة: ٥٥.

الشَّنْك: نوع من القواقع يستخدمه أهل سرنديب (سيريلانكا) للنفخ فيه: ٤٠.

صامكون: كلمة صينيه معناها قاضى القضاة: ٥٤.

الصَّمان: أرض بالبحرين بينها وبين الساحل مسافة قريبة: ١٠٢.

الطاطرية: اسم العملة المتداولة فى مملكة بَلَّهَرا، والمسعودى يستخدم لفظ «طاهرية» (١٤٦): ٤٩.

طوشى: كلمة صينية معناها محافظ مدينة صغيرة: ٥٤.

طوقام: خصى صينى من أبناءالأصول خصاه أهله ليكون فى خدمة الإمبراطور: ٥٤.

العَنْقَتُوس: سمك يرصد سمك الميج من تحت الماء حتى إذا سقط ابتلعه: ٣٨.

الغُبّ جمعها أغباب: الوادى العظيم إذا أفرط فى طوله وعرضه وكان مصبه إلى البحر: ٩٣.

الفكُّوج: ألف فلس: ٥٦.

القِلْع: اللؤلؤ الذى يوجد فى الصدفة وهى نابت (أى حيَّة) لم ينقلع، فيقلع، ولهذا أطلق عليه تجار اللؤلؤ اسم اللؤلؤ القلع: ١٠١.

القَلوس: حبال من ليف النارجيل: ٩٦.

الكَسْتَجْ: الودع الذى يأتى على وجه الماء وفيه روح، فيأخذ أهالى جزر بحر هَرْكَنْد سعفا من سعف النخيل ويطرحونها على وجه الماء فيتعلق بها. ويستخدمه سكان جزر المالديف واللاكديف عملة: ٣٩.

الُّلخم: سمك ضخم مفترس يبتلع الناس: ٤٢.

الُّلشك: سمكة طولها قدر ذراع تدخل فى أذن الوال ولا تفارقها حتى تقتلها: ٣٨

لُقشى صامكون شى: كلمة صينية معناها قاضى القضاة: ٥٤.

لَنْجون: كلمة صينية معناها مستشار يجلس وراء الملك ليشير عليه.

بالصواب إذا أخطأ فى أمر من الأمور: ٥٥.

مَلْجان: جزيرة بين سرنديب وكَلَه: ٤٦.

المَنْدْ: العنبر غير النقى الموجود فيما يلى بطن الحوت، وتكون فيه سهوكة (أى رائحة كريهة): ١٠٠.

المولْتان: اسم صنم قريب من مدينة المنصورة بالهند يقصده الهنود من مسافات بعيدة، ويقدمون له فاخر العود الهندى: ٩٦.

الميج: سمكة وجهها يشبه وجه الإنسان، تطير فوق الماء: ٣٨.

الوال: اسم من أسماء الحيتان: ٣٨.

اليَسَارة: مطر الصيف بالهند الذى يدوم تباعًا ثلاثة أشهر ليلاً ونهارًا، أشبه ما يكون بالأمطار الموسمية: ٩٤.

أسماء الجغرافيين والرحالة العرب الذين وردت أسماؤهم أو مؤلفاتهم فى هذا الكتاب

الإدريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عمر بن إدريس. . بن الحسين بن على بن أبى طالب، ولذا لقب بالشريف نسبة إلى جده الأعلى، ٤٩٣ ـ ٥٦٠هـ/ ١١٠٠ ـ ١١٦٥م)، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق.

الإصطخرى (أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفارسى، ولد أوائل الربع الأخير من القرن الثالث الهجرى، لأنه بدأ رحلاته أوائل القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى)، المسالك والممالك، ألّفه عام ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م، ونشرته إدارة الثقافة العامة، وزارة التربية والتعليم، تحقيق د. جابر الحسينى، القاهرة، ١٩٥٨م.

ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى، ٧٠٣ ـ ٧٧٨هـ/ ١٣٠٤ـ١٣٧٧م)، تحفة النظار فى غرائب الأبصار وعجائب الأمصار.

ابن البيطار (ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد الأندلسى، وُلد فى الربع الأخير من القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، وتوفى عام ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية.

ابن خُرْداذبّه (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، ٢١١ ـ ٣٠٠هـ/ ٨٢٧ ـ ٩١٣م)، المسالك والممالك، ألّفه عام ٣٢٠هـ/ ٨٨٤م. طبع فى لايدن عام ١٨٨٩م.

ابن رُسْته (أبى على أحمد بن عمر، برز اسمه فى النصف الأول من القرن

الثالث الهجرى/ التاسع والعاشر الميلادى) الأعلاق النفيسة، ألّفه عام ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م.

ابن الفقيه (أبو بكر بن محمد بن إسحق الهمذانى، ت ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م)، البُلْدان.

ابن واضح اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر، ت ٢٨٤هـ/ ٧٩٧م)، البلدان، طبعه دى خويا، لايدن، ١٨٩٢م.

أبو دُلَف (مِسْعر بن مُهَلْهِلْ الخزرجى اليَنْبُعى ٣٠٥ ـ ٣٨٥هـ/ ٩١٨ ـ ٩٩٥م)، رحلاته من ٣٣١ ـ ٣٤١هـ/ ٩٤٣ ـ ٩٥٢م)، له رسالتان بالإضافة إلى قصيدته فى العيارين والشطار. نشر الرسالة الثانية منهما وحققها بطرس بولغاكوف وأنس خالدوف، ترجمة وتعليق د. محمد منير مرسى، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٠م.

أبو زيد حسن السيرافى (عاش فى نهاية القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى)، الكتاب الثانى من أخبار الصين والهند.

بزُرْك بن شهريار الناخذاه الرام هرمزى، عجائب الهند، ترجع معظم قصصه إلى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى، والنصف الأول من الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى.

البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد، ٣٦٢ ـ ٤٤٨هـ/ ٩٧٢ ـ ١٠٥٦م)، الآثار الباقية من القرون الخالية ـ تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مزدولة.

الدَّميرى (كمال الدين محمد بن موسى، ٧٤٢ ـ ٨٠٨هـ/ ١٣٤١ ـ ١٤٠٥م)، حياة الحيوان الكبرى.

الدينورى (أبو حنيفة أحمد بن داوود، ت٢٨٢هـ/ ٨٩٥م)، الأخبار الطوال.

سليمان التاجر، أخبار الصين والهند (الكتاب الأول)، ألّفه عام ٢٣٧هـ/ ٨٥٢م.

القَزْوينى (زكريا بن محمد بن محمود، ٦٠٠ ـ ٦٨٢هـ/ ١٢٠٤ ـ ١٢٨٣م)، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات.

المَرْوَزى (جعفر بن أحمد، ت ٢٧٤هـ/ ٨٨٧م)، المسالك والممالك.

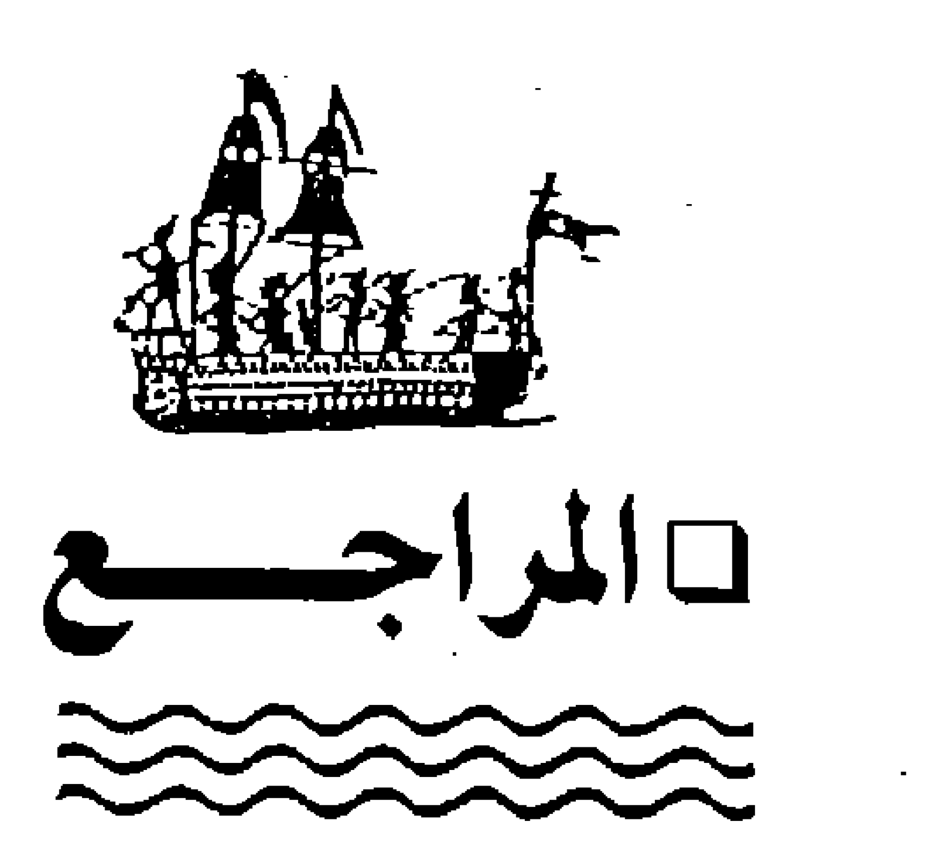
المسعودى (أبو الحسن على الحسين بن على، ت ٤٣٦هـ/ ٩٧٥م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر.

المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر، ٣٣٦ ـ ٣٩٠هـ/ ٩٤٧ ـ ١٠٠٠م)، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، أول من نشره دى خويه عام ١٩٠٦م.

النُّويرى (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ٦٧٦ ـ ٧٢٢هـ/ ١٢٧٨ ـ ١٣٢٢م)، نهاية الأرب فى فنون الأدب.

ياقوت الحموى (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله شهاب الحموى البغدادى، ٥٧٥ ـ ٦٢٦هـ/ ١١٧٩ ـ ١٢٢٩م)، معجم البلدان، ألّفه عام ٦٢١هـ.

* * *



المراجع

ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. بيروت: دار الكتاب اللبنانى، مكتبة المدرسة، (د. ت).

أحمد، نفيس: جهود المسلمين فى الجغرافيا، ترجمة فتحى عثمان ومراجعة على أدهم، (سلسلة الألف كتاب ٢٧٢)، دار القلم، القاهرة، د. ت.

أخبار الصين والهند. وقد أمكن الرجوع إلى طبعتين للنص العربى وثلاث ترجمات فرنسية: انظر:

M.Reinaud. Relation des Voyages par les Arabes et les Perses dans l'Inde et la Chine dans le Ixe Siécle. Paris 1845.

النص العربى وترجمته الفرنسية مع مقدمة وتعليقات وكشافات، انظر أيضا:

Gabriel Ferrand. Voyage du Marchand Arabe Sulayman en Inde et en Chine redigé en 851, suivi de remarques par Abu Zayd Hassan vers 916. Paris: Edition Bossard, 1922.

الترجمة الفرنسية مع مقدمة وتعليقات وكشافات.

Jean Sauvaget. Relation de la Chine et de l'Inde redigé en 851. Paris: société d'Edition Les belles lettres, 1984.

النص العربى والترجمة الفرنسية للجزء الأول فقط بدون ما أضافه إليه أبو زيد حسن السيرافى، مع مقدمة وتعليقات وكشافات.

الأزكوى، ابن جعفر: الجامع، تحقيق عبد المنعم عامر، مسقط، وزارة التراث، ١٩٨١م.

ألف ليلة وليلة: ط٢، بيروت، المكتبة الثقافية ١٩٨١م.

بزُرْك بن شهريار الناخذاه الرام هرمزى، عجائب الهند، قدم له فان ديرليت، ترجمة مارسيل ديفيك، بريل، لايدن، ١٨٨٦م.

عجائب الهند، تقديم يوسف الشارونى، رياض الريس ومشاركوه، لندن، ١٩٩٠م.

حورانى، جورج فضلو، العرب والملاحة فى المحيط الهندى، ترجمه وزاد عليه د. السيد يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.

دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة إبراهيم زكى خورشيد وآخرين.

الدميرى، حياة الحيوان الكبرى، مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، ط٥، ١٩٧٨م.

الشارونى، يوسف، مع التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م.

- أعلام من عمان، رياض الريس ومشاركوه، لندن، ١٩٩٠م.

الشهابى، مصطفى: الجغرافيون العرب، دار المعارف بمصر، سلسلة اقرأ ٢٣٠، ١٩٦٢م.

عبد العليم، أنور، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، ١٩٧٩م. (سلسلة عالم المعرفة)

- جزائر الواقواق، الدوحة (مجلة، قطر)، العدد ١١٢، إبريل ١٩٨٥م، صفحات ١٢٠ - ١٢٣.

- جزيرة النساء، الدوحة، قطر، العدد ١١١، مارس ١٩٨٥م، صفحات ٧٤-٧٧.

- عجائب بحر الهند، الدوحة، قطر، العدد ١٠٩، يناير ١٩٨٥م، صفحات ٣٥-٣٩.

- قصة الملاحة العربية منذ آلاف السنين، الدوحة، قطر، العدد ١١٣، مايو ١٩٨٥م، صفحات ٧٠ - ٧٤.

العقاد، صلاح، وجمال زكريا قاسم، زنجبار، مكتبة الأنجلو المصرية، سلسلة الألف كتاب ٢٩٩، ١٩٥٩م.

عُمان وتاريخها البحرى، سلطنة عمان، وزارة الإعلام والثقافة، ١٩٧٩م.

فرانك ايرين وبراونستون، ديفيد: طريق الحرير، ترجمه أحمد محمود، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧م.

فرج، محمد: العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول، دار الفكر العربى القاهرة، ١٩٥٨م.

فوزى، حسين: حديث السندباد القديم، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٣م.

القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.

القزوينى، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مصطفى البابى الحلبى، القاهرة ط٥، ١٩٨٠م.

قنديل، فؤاد: أدب الرحلة فى التراث العربى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مكتبة الشباب ٣٤، القاهرة ١٩٩٥م.

كُحيلة، عُبادة: عن العرب والبحر، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٩م.

كراتشكوفسكى (أغناطيوس بوليانوفتشى) تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم وراجعه ايجوربيلايف، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالجامعة العربية، القاهرة، ١٩٥٧م.

المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المجلد الأول، دار الكتاب اللبنانى ومكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، د. ت.

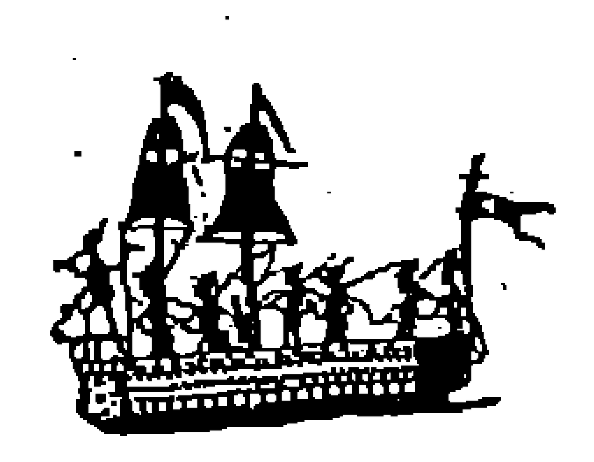
المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٢م.

المغيرى، سعيد بن على: جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار، ط٢، سلطنة عمان، وزارة التراث القومى والثقافة، ١٩٨٠م.

المنجد فى اللغة والأعلام، ط٢٧، بيروت، دار المشرق، ١٩٨٦م.

ميكيل، أندريه، جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادى عشر، ترجمة إبراهيم خورى، وزارة الثقافة السورية، دمشق، جـ١ .

وجدى، محمد فريد: المصحف المفسر، مطابع الشعب، القاهرة، ١٣٧٧هـ.



يوسف الشارونى

ـ ولد فى ١٤ أكتوبر ١٩٢٤م.

ـ حصل على ليسانس الآداب قسم الفلسفة ـ جامعة القاهرة عام ١٩٤٥م.

ـ تدرج بالعمل فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية (المجلس الأعلى للثقافة الآن)، حتى أصبح وكيلاً للوزارة به.

ـ بدأ حياته الفنية بكتابة القصة القصيرة والنثر الغنائى فى أواخر الأربعينيات، ثم زاوج بين القصة القصيرة والدراسة الأدبية وتقديم التراث والترجمة.

ـ كان من أوائل الكتّاب المصريين الذين أرسوا قواعد القصة التعبيرية، إذ جنح فى قصصه إلى التعبير عن موجة القلق التى تسود القرن العشرين، والضغوط التى يتعرض لها الإنسان المعاصر، ووحدة العالم الواحدة.

ـ أما النقد عنده فأساسه أن يكون أقرب إلى الإبداع.

ـ كما أن تنظيره النقدى يقوم على أساس تقسيم تاريخ الأدب إلى مراحل طبقًا لطريقة توصيله: المرحلة الشفاهية، فمرحلة المطبعة، فوسائل الاتصال الجماهيرى، حتى الشريط السمعى والشريط البصرى، وتربط بين هذه المراحل حركة لولبيه تأخذ مما سبقتها وتضيف إليها.

ـ ترجمت قصصه إلى كثير من اللغات الأجنبية.

ـ شارك فى كثير من برامج الإذاعة والتليفزيون، فى مقدمتها برامج مع النقاد، وكتابات جديدة، ومع الأدباء الشبان.

ـ اشترك فى عضوية كثير من المؤتمرات الأدباء داخل مصر وخارجها.

ـ شارك فى التحكيم فى لجان جوائز الدولة للرواية والقصة القصيرة بالمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، ومسابقتى الرواية والقصة القصيرة بنادى القصة، ومسابقة الرواية لمجلة الناقد التى كانت تصدرها دار نشر رياض الريس فى لندن، ومسابقة القصة القصيرة لمؤسسة أندلسية للثقافة والعلوم بالإسكندرية، والمتقدمين لمنح التفرغ للرواية والقصة القصيرة بوزارة الثقافة.

ـ نائب رئيس نادى القصة بالقاهرة، عضو اتحاد الكتّاب المصريين.

ـ له اكثر من خمسة وأربعين كتابا ما بين مجموعات قصصية ونثر غنائى ودراسات أدبيه وتحقيق تراث وترجمات عن الانجليزية.

دراسات عنه:

الخوف والشجاعة: بقلم: مجموعة من النقاد، كتابات معاصرة، القاهرة، ١٩٧١م.

الدكتور نعيم عطية: يوسف الشارونى وعالمه القصصى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٤م.

يوسف الشارونى مبدعًا وناقدًا: إعداد وتقديم نبيل فرج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م.

رسائل جامعية: هيثم أحمد حسن ، تقنيات القصة القصيرة عند يوسف الشارونى، كلية الآداب ، جامعة حلوان، يناير ١٩٩٩م.

الجوائز والأوسمة الحاصل عليها:

ـ جائزة الدولة التشجيعية فى القصة عن مجموعته القصصية: «الزحام» عام ١٩٧٠م.

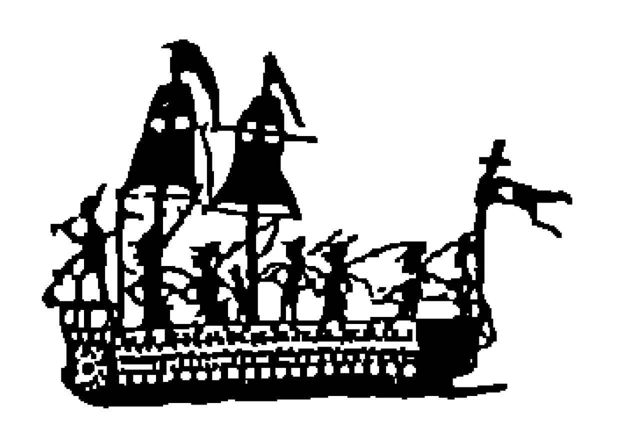
ـ جائزة الدولة التشجيعية فى النقد عن كتابه: «نماذج من الرواية المصرية» عام ١٩٧٨م.

ـ وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٧٠م.

ـ وسام الجمهورية من الطبقة الثانية عام ١٩٧٩م.



المحتويات



هذا الكتـــاب

تتركز أهمية كتاب «اخبار الصين والهند»
فى أنه من اوائل الكتب التى استفادت مما وصلت إليه خبرات الملاحين العرب
فى المحيط الهندى حتى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، وأعادت فأفادت كمرشد بحرى لهؤلاء
الملاحين. فهو يقدم لنا صورة عن الطرق البحرية التى سلكها العرب حتى ذلك الوقت فى المحيط الهندى:
غربا حتى ساحل إفريقيا الشرقى، وشرقا حتى ميناء كانتون فى الصين. وبفضل الصداقة المتبادلة
التى نشأت بينه وبين أديبنا يوسف الشارونى، فقد استطاع أن يقدمه للقارىء المعاصر بدراسة
ممتعة، وبما أضافه من كشافات وهوامش شارحة. إنه كتاب تراثى رائد
فى تاريخ الملاحة العربية.

الدار المصرية اللبنانية